# الفصل الأول

# الأسرة في ظلال الإسلام

## البحث الأول:

## حماية الإسلام للأسرة[١]

اهتمّ الإسلامُ بحماية الأسرة من آفات الفساد والهدم، وأقام سدًّا يعصمها من البوار والتّلف. وحماية الأسرة في الأصل من واجبات راعيها، الذي عليه أن يدفع عنها السّوءَ، وأن يقيَهَا المهالك والشّرور. «**كلُّكُمْ راعٍ وكلُّكُم مسؤول عن رعيته، فالرجلُ راعٍ في أهل بيتهِ وهو مسؤولٌ عن رعيّتهِ..**»[٢]. على الرجل أن يستيقظ لأعبائه، فيحدّ بصره ويرهف سمعه ولا يغفل، ويتلمح عواقب الأمور، فلا يتهاون ولا يعبث، ولا يدع بيته تجتاحه الرياح اللّوافح والعواصف المدمّرة.

عليه أن يرعى زوجته، فلا يذرها تنحرف وهو شاهد، ولا تعبث وهو لاهٍ ساهٍ ولا يُمْلي لها حتى تلج ميادين الشّرّ وساحات الهدم، بل لا بد من وعي الرقابة وحسن القيادة وتأمين الطريق، والمبادرة قبل استفحال الخطر واستمكان الداء.

وعليه أن يحسن قيادة ذريته، وأن يتحرى في تنشئتهم مناهج الاستقامة وخصائص الفطرة، وأن يحميهم من مفاسد البيئة وأمراضها، وأن يزودهم بطاقات التحمل والكفاح ويجهزهم بأسلحة النّضال والفوز وأن يكون قدوة لهم في السّلوك والاتّجاه.

---

(١) الأسرة في الإسلام - عرض عام لنظام الأسرة في ضوء الكتاب والسنة: للدكتور مصطفى عبد الواحد، ص: ٨٧ - ٩٠، ط مكتبة المتنبي - القاهرة.

(٢) متفق عليه.

ثم راعى الإسلام حماية الأسرة من الخارج. . .

حمايتها من جرائيم البيئة وعدواها، وحجب أفرادها من التعرض للإغراء والاختطاف، حتى لا تتصدع الأسرة وتنهار.

فالزوجة يمنع الإسلام عنها تيار الفتنة والاجتناب، فينهى عن إفسادها، وتحريضها على زوجها، وتأميلها بحياةٍ أرغد وعيش أهنأ.

فإن فاعل ذلك شريرٌ ملعونٌ.

قال النبي: «**ليس منّا مَنْ خبّبَ امرأةً على زوجها**» رواه أبو داود. أي: أفسدها عليه.

وهذا إيصاد لباب واسع يجلب للأسرة الشّقاء والتّعاسة والخراب، حين تتعرّض الزوجة لدعوات الإغراء وتتطلع إلى إلحاح الفتنة، فتندفع لهدم بيتها وتنخدع بالأماني والأحلام الكاذبة.

وفي سبيل ذلك يمنع عنها أسباب الغواية، ويُطفىء مبادىء الشّرور.

## البحث الثاني:

## الأسرة الصالحة المؤسّسة الأولى للإنسانيّة(١)

### وجوب تنظيم الأسرة وضبطها من البداية حتى النّهاية:

حرص التّشريع الإسلامي على تنظيم مؤسسة الأسرة؛ وضبط الأمور فيها، وتوزيع الاختصاصات، وتحديد الواجبات؛ وبيان الإجراءات التي تتخذ لضبط أمور هذه المؤسسة؛ والمحافظة عليها من زعازع الأهواء والخلافات؛ واتقاء عناصر التهديم فيها والتدمير، جهد المستطاع: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا

(١) دستور الأسرة في ظلال القرآن: لأحمد فائز، ١٢٩ - ١٤٠، ط مؤسسة الرسالة - بيروت.

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾(١). ولا بدّ - قبل الدّخول في تفسير هذه النّصوص القرآنية، وبيان أهدافها النفسية والاجتماعية - من بيان مجمل لنظرة الإسلام إلى مؤسسة الأسرة، ومنهجه في بنائها والمحافظة عليها، وأهدافه منها... بيان مجمل بقدر الإمكان: إنّ الذي خلق هذا الإنسان جعل من فطرته «الزوجية» شأنه شأن كل شيء في هذا الوجود: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

ثم شاء أن يجعل الزّوجين في الإنسان شطرين للنّفس الواحدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾(٣). وأراد بالتقاء شطري النّفس الواحدة - بعد ذلك - فيما أراد، أن يكون هذا اللّقاء سكناً للنّفس، وهدوءاً للعصب، وطمأنينةً للرّوح، وراحة للجسد... ثم ستراً وإحصاناً وصيانةً... ثم مزرعةً للنّسل وامتداد الحياة مع ترقيها المستمر، في رعاية المحضن الساكن الهادىء المطمئن المستور المصون:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(٤) ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٥) ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾(٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾(٨).

ومن تساوي شطري النّفس الواحدة في موقفهما من الله، ومن تكريمه للإنسان، كان ذلك التّكريم للمرأة، وتلك المساواة في حقوق الأجر والثّواب عند الله، وفي حقوق التّملك والإرث، وفي استقلال الشخصية المدنية.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الذّاريات، الآية: ٤٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ١.
(٤) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.
(٧) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٨) سورة الطور، الآية: ٢١.

ومن أهميّة التقاء شطري النّفس الواحدة، لإنشاء مؤسسة الأسرة ومن ضخامة تبعة هذه المؤسسة أولاً: في توفير السَّكن والطمأنينة والسّتر والإحصان للنّفس بشطريها. وثانياً: في إمداد المجتمع الإنساني بعوامل الامتداد والتّرقي... كانت تلك التّنظيمات الدّقيقة المحكمة التي تتناول كل جزئية من شؤون هذه المؤسسة وقد احتوت سورة النساء جانباً من هذه التنظيمات، كما احتوت سورة البقرة جانباً آخر.

واحتوتْ سُوَرٌ أخرى من القرآن، وعلى الأخص سورة النّور في الجزء الثامن عشر، وسورة الأحزاب في الجزئين الحادي والعشرين والثّاني والعشرين، وسورة الطّلاق وسورة التّحريم في الجزء الثامن والعشرين... ومواضع أخرى متفرّقة في السّور، جوانب أخرى تُؤلّف دستوراً كاملاً شاملاً دقيقاً لنظام هذه المؤسسة الإنسانية؛ وتدل بكثرتها وتنوعها ودقتها وشمولها، على مدى الأهمية التي يعقدها المنهج الإسلامي للحياة الإنسانية على مؤسسة الأسرة الخطيرة!.

ونرجو أن يكون قارىء هذه الصّفحة على ذكر مما سيأتي في صفحات الكتاب نفسه، عن طفولة الطفل الإنساني، وطولها، وحاجته في خلالها إلى بيئة تحميه أوّلاً حتى يستطيع أن يكسب رزقه للمعاش؛ وأهم من هذا أن تؤهله بالتربية إلى وظيفته الاجتماعية والنّهوض بنصيبه إلى ترقية المجتمع الإنساني، وتركه خيراً مما تسلمه حين جاء إليه، فهذا الكلام ذو أهمية خاصة في بيان قيمة مؤسسة الأسرة؛ ونظرة المنهج الإسلامي إلى وظائفها، والغاية منها، واهتمامه بصيانتها، وحياطتها من كل عوامل التدمير من قريب ومن بعيد...

وفي ظل هذه الإشارات المجملة إلى طبيعة نظرة الإسلام للأسرة وأهمّيتها، ومدى حرصه على توفير ضمانات البقاء والاستقرار والهدوء في جوها... إلى جانب ما أوردناه من تكريم هذا المنهج للمرأة؛ ومنحها استقلال الشّخصية واحترامها؛ والحقوق التي أنشأها لها إنشاءً - لا مُحَابَاةً لذاتها ولكن لتحقيق أهدافه الكبرى من تكريم الإنسان كله ورفع الحياة الإنسانية - نستطيع أن نتحدث عن الموضوع الذي قدمنا للحديث عنه بهذا الإيضاح: إن هذا النّص - في سبيل

تنظيم المؤسسة الزوجية وتوضيح الاختصاصات التنظيمية فيها لمنع الاحتكاك فيها بين أفرادها؛ بردهم جميعاً إلى حكم الله لا حكم الهوى، والانفعالات والشخصيات - يحدد أنّ القِوَامة في هذه المؤسسة للرّجل؛ ويذكر من أسباب هذه القوامة: تفضيل الله للرجل؛ بمقومات القوامة، وما تتطلبه من خصائص ودربة، و. . . تكليف الرجل الإنفاق على المؤسسة. وبناء على إعطاء القوامة للرجل، يحدّد كذلك اختصاصات هذه القوامة في صيانة المؤسسة من التّفسّخ؛ وحمايتها من النّزوات العارضة؛ وطريقة علاج هذه النزوات - حين تعرض في حدود مرسومة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾(١). إنّ الأسرة - كما قلنا - هي المؤسّسةُ الأولى في الحياة الإنسانيّة الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التي تُؤثّر في كلِّ مراحل الطريق. والأولى من ناحية الأهميّة لأنّها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني، وهو أكرم عناصر هذا الكون، في التّصور الإسلامي.

إذا كانت المؤسسات الأخرى الأقل شأناً، والأرخص سعراً؛ كالمؤسّسات المالية والصّناعية والتّجارية. . . . وما إليها. . . لا يوكل أمرها - عادة - إلّا إلى الأكفّاء المرشّحين لها، ممن تخصّصُوا في هذا الفرع علمياً، ودربوا عليه عملياً، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة والقوامة. . .

إذا كان هذا هو الشّأن في المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً. . . فأوْلَى أن تتبع هذه القاعدة في مؤسّسة الأسرة، التي تنشىء أثمن عناصر الكون. . . . العنصر الإنساني. . . والنّوع البشري. . .

والمنهج الرّبّاني يُراعي هذا، ويُراعي به الفطرة، والاستعدادات الموهوبة لشطري النّفس لأداء الوظائف المنوطة بكلٍّ منهما وفق هذه الاستعدادات، كما يُراعي به العدالة في توزيع الأعباء على شطري النّفس الواحدة. . . والعدالة في اختصاص كل منهما بنوع الأعباء المهيّأ لها، المُعَانِ عليها من فطرته واستعداداته

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

المتميزة المتفردة... والمُسلَّمُ به ابتداءً أنّ الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله تعالى، وأنّ الله - سبحانه - لا يريد أن يظلم أحداً من خلقه، وهو يهيّئُهُ ويُعِدُّه لوظيفةٍ خاصّةٍ، ويمنحه الاستعدادات اللازمة لإحسان هذه الوظيفة!.

وقد خلق الله النّاس ذكراً وأنثى... زوجين على أساس القاعدة الكلّيّة في بناء هذا الكون... وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل... وهي وظائف ضخمة أولاً وخطيرة ثانياً.

وليست هينة ولا يسيرة، بحيث تؤدّى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى، فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشطر الثاني - الرجل - توفير الحاجات الضرورية. وتوفير الحماية كذلك للأنثى؛ كي تتفرّغَ لوظيفتها الخطيرة، ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل... ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد! وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يُعينه على أداء وظائفه هذه. وأن تُمنح المرأةُ في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنّفسي ما يُعينها على أداء وظيفتها تلك.

وكان هذا فعلاً... ولا يظلم ربك أحداً... ومن ثَمَّ زُوّدتِ المرأةُ - فيما زُوّدتْ به من الخصائص - بالرقة والعطف، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة - بغير وعي ولا سابق تفكير - لأن الضّروريات الإنسانية العميقة كلها - حتى في الفرد الواحد - لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية! لتسهل تلبيتها فوراً وفيما يشبه أن يكون قسراً.

ولكنّه قسرٌ داخلي غير مفروض من الخارج؛ ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان. كذلك: لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرى - مهما يكن فيها من المشقة والتّضحية! صنع الله الذي أتقنَ كلّ شيء.

وهذه الخصائص ليست سطحية، بل هي غائرة في التّكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة... بل يقول كبار العلماء المختصّين: إنّها

غائرة في تكوين كلّ خليةٍ. لأنّها عميقة في تكوين الخليّة الأولى، التي يكوّن من انقسامها وتكاثرها الجنين، بكل خصائصه الأساسية!.

وكذلك زوَّدَ الرّجل - فيما زوّدَه به من الخصائص - بالخشونة والصلابة، وبطء الانفعال والاستجابة، واستخدام الوعي والتّفكير قبل الحركة والاستجابة. لأنّ وظائفه كلّها من أوّل الصّيد الذي كان يُمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يُمارسه دائماً لحماية الزوج والأطفال. إلى تدبير المعاش... وإلى سائر تكاليفه في الحياة... لأن وظائفه كلّها تحتاج إلى قدرٍ من التّروّي قبل الإقدام؛ وإعمال الفكر، والبطء في الاستجابة بوجهٍ عام!... وكلُّها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها.

وهذه الخصائص تجعله أقدر على القِوَامة، وأفضل في مجالها... كما أنّ تكليفه بالإنفاق - وهو فرع من توزيع الاختصاصات - يجعله بدوره أولى بالقِوَامة، لأن تدبير المعاش للمؤسّسة ومَنْ فيها داخل في هذه القوامة؛ والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها... وهذان هما العنصران اللّذان أبرزهما النّص القرآني، وهو يُقرِّرُ قِوَامَةَ الرّجال على النّساء في المجتمع الإسلامي؛ قِوَامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد، ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات ولها أسبابها من العدالة في التّوزيع من ناحية؛ وتكليف كل شطر - في هذا التوزيع - بالجانب الميسَّر له، والذي هو معان عليه من الفطرة، وأفضليته في مكانها... في الاستعداد للقِوَامة والدّربة عليها... والنّهوض بها بأسبابها... لأنّ المؤسسة لا تسير بلا قوامة - كسائر المؤسّسات الأقل شأناً والأرخص سعراً - ولأن أحدَ شطري النّفس البشرية مهيأ لها، مُعانٌ عليها، مكلف تكاليفها. وأحدُ الشّطرين غير مهيّأ لها، ولا مُعَانٌ عليها... ومن الظلم أن يُحمّلَها ويحمل تكاليفها إلى جانب أعبائه الأخرى... وإذا هُيّىء لها بالاستعدادات الكامنة، ودُرّب عليها بالتّدريب العلمي والعملي، فسد استعداده للقيام بالوظيفة الأخرى... وظيفة الأمومة... لأنّ لها هي الأخرى مقتضياتها واستعداداتها. وفي مقدمتها سرعة الانفعال، وقرب الاستجابة. فوق

الاستعدادات الغائرة في التّكوين العضوي والعصبي، وآثارها في السّلوك والاستجابة.

إنّها مسائل خطيرة... أخطر من أن تتحكّم فيها أهواء البشر... وأخطر من أن تُترك لها يتخبّطون فيها خَبْط عشواءِ... وحين تُركتْ لهم ولأهوائهم في الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة، هَدّدتِ البشريّةَ تهديداً خطيراً في وجودها ذاته؛ وفي بقاء الخصائص الإنسانيّة التي تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميز. ولعلّ من الدّلائل التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكّمها، ووجود قوانينها المتحكّمة في بني الإنسان: حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكَّرُون لها... ولعلّ من هذه الدّلائل ما أصاب الحياة البشرية من تخبّطٍ وفسادٍ، ومن تدهورٍ وانهيارٍ؛ ومن تهديد بالدّمار والبوار، في كل مرّة خولفتْ فيها هذه القاعدة فاهتزّت سلطة القِوَامة في الأسرة أو اختلطت معالمها، أو شذت عن قاعدتها الفطرية الأصلية.

ولعلّ من هذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها إلى قيام هذه القِوَامة على أصلها الفطري في الأسرة، وشعورها بالحرمان والنّقص والقلق وقلة السعادة؛ عندما تعيش مع رجل لا يزاول مهام القِوامة؛ وتنقصه صفاتها اللازمة؛ فيكل إليها هي القوامة، وهي حقيقة ملحوظة تسلم بها حتى المنحرفات الخابطات في الظلام.

ولعلّ من هذه الدّلائل أن الأطفال - الّذينَ ينشأون في مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأبِ؛ إمّا لأنّه ضعيف الشخصية، بحيث تبرز عليه شخصية الأمّ وتُسيطر عليه، وإمّا لأنّه مفقود: لوفاته - أو لعدم وجود أبٍ شرعي - قلما ينشأون أسْوِيَاء، وقلّ ألّا ينحرفوا إلى شذوذٍ ما في تكوينهم العصبي والنّفسي، وفي سلوكهم العملي والخُلُقي.. فهذه كلها بعضُ الدّلائل التي تُشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكّمها، ووجود قوانينها المتحكّمة في بني الإنسان، حتى وهم ينكرونها ويرفضُونها ويتنكّرُون لها.

إنّ لِقِوَامةِ الرّجال مقوماتها ومبرّراتها، وضرورتها وفطريتها كذلك...

ولكن ينبغي أن نقول: إنّ هذه القِوَامة ليس من شأنها إلغاءُ شخصيّة المرأة في البيتِ ولا في المجتمع الإنساني؛ ولا إلغاء وضعها «المدني».

وإنّما هي وظيفة - داخل كيان الأسرة - لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة، وصيانتها وحمايتها. ووجود القيِّم في مؤسّسةٍ ما، لا يلغي وجودَ شخصيّة الشركاء ولا حقوقهم ولا العاملين في وظائفها، فقد حدد الإسلام في مواضع أخرى صفة قِوَامة الرّجل وما يُصاحبها من عطفٍ ورعايةٍ، وصيانةٍ وحماية، وتكاليف في نفسه وماله، وآدابٍ في سلوكه مع زوجه وعياله.

ففي الاستقرار البيتي قطعاً لدابر الفوضى والنِّزاع فيه، جعل الإسلام القوامة للرجل فيه، وذلك تمشياً مع سياسة التّنظيم الّتي يحرص عليها الإسلام حرصاً شديداً، والتي جعلت الرَّسُولَ ﷺ يأمر الرّجالَ أن يُؤمِّرُوا عليهم حتى ولو خرج اثنان في أمرٍ فأحدُهُما أميرٌ.

إنّ توحيد القيادة ضروري لأمن السفينة وفي سفينة البيت لا بدّ من قيادة تتحمّل التَّبِعَةَ وتحفظُ النّظامَ أن ينفلتَ، وليس في هذا شذوذ على القاعدة الإسلامية العامّة في عالم الرّجال أيضاً. فأي الزّوجين كان المنطق كفيلاً بأن يسلمه القيادة؟ المرأة المشبوبة بالعواطف والانفعال بحكم وظيفتها الأولى في رعاية الأطفال وتعطير جوّ البيت بالجمال، أمِ الرّجل الذي كلفه الإسلام بالإنفاق لتخلو المرأة إلى عبئها الضّخم، وتنفق فيه طاقتَها ووسعها؟ لقد جعل الإسلام القِوَامة تحقيقاً لنظامه المطرد أن تكون في كل عمل قيادة وقِوَامةٍ، واختاره لأنه بخلقته وتجاربه أصلح الاثنين لهذه الوظيفة. وهكذا حين تُعرض المسألة في بساطتها هذه وفي وُضُوحها، ينكشف ذلك اللغط الهاذر الذي تلوكه ألسنة الفارغين والفارغات في هذا الزّمان حول هذا النّظام، ويتجلّى أن فراغ الحياة وفراغ القلوب وفراغ العقول، هو الذي ينشئ ذلك اللّغط، ويجعله موضوع جدل. وهو نظام قصد به الإسلام أن يكون حلقة من حلقات السلام في البيت، ضمانة الاستقرار فيه والنّظام. ولكن في عهود الانتكاس وفي فترات الفراغ من جديّات الأمور، لا يبقى للمجتمع ما يحفل به إلا الفُتَات والقُشُور.

إنّ الضّرورة تقتضي أن يكون هناك قيّم توكل إليه الإدارة العامّة لهذه الشركة القائمة بين الرجل والمرأة، وما ينتج عنها من نسل، وما تستتبعه من تبعات وقد اهتدى النّاس في كل تنظيماتهم إلى أنّه لا بدّ من رئيس مسؤول وإلّا ضربتِ الفوضى أطنَابَها، وعادت الخسارة على الجميع. وهناك ثلاثة أوضاع يمكن أن تُفترض بشأن القِوامة في الأسرة؛ فإمّا أن يكون الرّجل هو القيّم، أو تكون المرأة هي القيّمة، أو يكونا معاً قيّمين، ونستبعد الفرض الثالث منذ البدء لأنّ التجربة أثبتت أن وجود رئيسين للعمل الواحد أدعى إلى الفساد من ترك الأمر فوضى بلا رئيس، والقرآن يقول عن السماء والأرض: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾(١) . . . ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾(٢) فإذا كان هكذا الأمر بين الآلهة المتوهَّمين، فكيف هو بين البشر العاديين؟.

وعلم النّفس يُقرّر أنّ الأطفال الذين يتربَّوْن في ظل أبوين يتنازعان على السّيادة، تكون عواطفهم مختلة، وتكثر في نفوسهم العقد والاضطرابات. بقي الفرضان الأولان، وقبل أن نخوض في بحثهما نسأل هذا السّؤال: أيهما أجدر أن تكون له وظيفة القِوَامة، بما فيها من تبعات: الفكر أم العاطفة؟ فإذا كان الجواب البدهي هو الفكر، لأنّه هو الذي يُدبّر الأمور في غيبة عن الانفعال الحادّ، الذي كثيراً ما يلتوي بالتّفكير، فيحيد به عن الطريق المباشر المستقيم، فقد انحلت المسألة دون حاجة إلى جدال كثير.

فالرّجل بطبيعته المفكرة لا المنفعلة، وبما زودته به الحياة من قدرة على الصّراع، واحتمال أعصابه لنتائجه وتبعاته، أصلح من المرأة فى أمر القِوَامة على البيت، بل إنّ المرأة ذاتها لا تحترم الرّجل التي تسيّره هي فيخضع لرغباتها، بل تحتقره بفطرتها ولا تقيم له أيَّ اعتبارٍ، فإذا كان هذا من أثر التربية القديمة التي تترك طابعها في اللاشعور، فكيف مشاعر المرأة دون وعي منها، فهذه هي المرأة الأمريكية بعد أن ساوت الرّجل مساواة كاملة في الحقوق الاقتصادية، وصار لها

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢. (٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

كيان ذاتي مستقل، عادت فاستعبدت نفسها للرجل، وهذه هي - كما تتحدّث الاعترافات التي تنشرها الصّحف الأمريكية، وكما يشهد الذين زاروا تلك البلاد - تتحسس عضلات الرّجل وتتطلّع إلى صدره العريض وذراعيه المفتولين، ثم تُلْقِي بنفسها بين أحضانه، حين تطمئن إلى قوّته بالقياس إلى ضعفها، أي حينَ تتلبّس النتوءات والمنحنيات ليتألف منها مزاج مؤتلف متناسق.

على أن المرأة إذا تطلعت «للسيادة» في أول عهدها بالزّواج، وهي فارغة البال من الأولاد وتكاليف تربيتهم التي ترهق البدن والأعصاب، فسرعان ما تنصرف عنها حين تأتي المشاغل وهي آتية بطبيعة الحال، فحينذاك لا تجد في رصيدها العصبي والفكري ما تحتمل به مزيداً من التّبعات.

وليس مؤدّى هذا أن يستبدّ الرّجلُ بالمرأة أو بإدارة البيت، فالرئاسة التي تقابل التّبعة، لا تنفي المشاورة ولا المعاونة، بل قد يكون العكس هو الصحيح. فالرّئاسة النّاجحة هي التي تقوم على التّفاهم الكامل، والتعاطف المستمر. وكل توجيهات الإسلام تهدف إلى إيجاد هذه الروح في داخل الأسرة، حتى لينفّر النّبيّ ﷺ الرّجال من استعمال حقوقهم في تأديب زوجاتهم النّاشزات - تلك الحقوق التي صرّح لهم بها القرآن - إلّا في حالات الضّرورة القصوى التي تبيح كل شيء. فهو يقول لهم: «**أمَا يستحي أحدكم أن يضرب زوجته أوّلَ النّهار ثم يُضَاجِعُها آخرَهُ؟**» فيدعُو إلى تغليب الحُبّ والتّفاهم على النّزاع والشّقاق. ويجعل مقياسَ الخير عند الرّجل هو طريق معاملته لزوجته حيث يقول الرسول ﷺ: «**خيرُكم خيرُكم لأهلِهِ**». ومن حقّ القِوَامة نشأ في الإسلام أن يكون الرّجل هو الذي له حق الطّلاق لا المرأة، وتقول النّسوة اللائي احترفنَ إقامة المؤتمرات للإعلان: إنّ هذا ظلمٌ، وإنّه كان ينبغي أن تُعطى المرأة أيضاً هذا الحق فتُطَلِّق الرّجلَ حين تُريدُ.

والمسألة أبسط من أن تقوم فيها المماحكة، فلتسأل كل امرأة نفسها كم مرّة وافقت في حياتها على الشيء بكلّيتها ثم رفضته هو ذاته حين تغيرت عاطفتها نحوه. . . ولتتصور بعد ذلك كم مرّة كانت ستطلق زوجها ثم تعود فتردّه، ثم

تعود فتطلقه، وهكذا وهكذا. بحيث لا يُقرّ للبيت قرارٌ، وتختل نفوسُ الأولاد من هذه الحركةِ الدّائمة من النّقيض إلى النّقيض.

وليس معنى هذا أنه لا يوجد رجال يصنعون ذلك، ففي كلا الجنسين قدراً من طباع الآخر يزيد أو ينقص، ولكن الأحكام العامة في مثل هذه الأحوال تكون موكلة بالأغلبية السّاحقة، لا بالحالات الفردية التي تدخل في باب الشّذوذ، وهذه شهادة «الدكتور ألكسيس كاريل» في كتابه الذي يُسمّيه «القوانين الطّبيعية» ونحن نسميهِ «قوانين الفطرة التي فطرَ الله النَّاسَ عليها» فنرى أنْ ندعه هو يُدلي بشهادته العلمية دون تعليق:

«إنّ الاختلافات الموجودة بين الرّجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التّناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التّعليم. إذْ أنّها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك... إنها نشأت من تكوّن الأنسجة ذاتها، ومن تلقيح الجسم كلّه بموادّ كيماوية محددة يفرزها المبيض... ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقَّى الجنسان تعليماً واحداً، وأن يُمنحَا سلطاتٍ واحدةٍ ومسؤوليات متشابهة... والحقيقة أنّ المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرّجل، فكل خليّة من خلايا جسمها تحملُ طابعَ جنسها. والأمرُ نفسه صحيح بالنّسبة لأعضائها، وفوق كلِّ شيء بالنّسبة لجهازها العصبي. فالقوانين الفُسيُولوجيّة غير قابلة للّين، شأنُها شأنُ قوانين العالم الكوكبي. فليسَ في الإمكان إحلال الرّغبات الإنسانية محلّها.

ومن ثَمَّ فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي، فعلى النّساء أن ينمين أهليتهنَّ تبعاً لطبيعتهن، دون أن يحاولن تقليد الذّكور، فإنّ دورهنّ في تقدّم الحضارة أسْمَى من دور الرّجال. فيجبُ عليهنّ ألّا يتخلين عن وظائفهنّ المحدّدة». إنّ الأب والأم يُساهمان بقدرٍ مُتساوٍ في تكوين نواة البويضة، التي تُولِّد كلَّ خلية من خلايا الجسم الجديد. ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة النّووية كل البروتوبلازم المحيط بالنّواة... وهكذا تلعب دوراً أهم من دور الأب في تكوين الجنين.

«إنّ دور الرّجل في التّناسل قصير الأمد، أمّا دور المرأة فيطولُ إلى تسعة أشهر. وفي خلال هذه الفترة يُغَذّى الجنينُ بمواد كيماوية ترشحُ من دم الأمّ من خلال أغشية الخلاص. وبينما تمدّ الأمُّ جنينَها بالعناصر التي تتكون منها أنسجته فإنّها تتسلم مواد معينة تُفرزها مخلوقاً من أصل غريب - جزئياً - قد اتخذ له مأوَى في جسم المرأة. فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل. وقد تتسمم المرأة في بعض الأحيان بواسطة جنينها، كما أن أحوالها الفُسيولوجيّة والسُّيكُولوجيّة تعدّلُ به دائماً... وعلى أيّ حال يبدو أن النّساء - من بين الثّدييات - هُنّ فقط اللّائي يصلنَ إلى نموهنَّ الكامل بعد حمل أو اثنين. كما أنّ النّساء اللّائي لم يلدنَ لَسْنَ متزنات توازناً كاملاً كالوالدات. فضلاً عن أنّهنّ يصبحنَ أكثر عصبية منهنّ... وصفوةُ القول: إنّ وجود الجنين، الذي تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأمّ، بسبب صغرها، ولأنّها - جزئياً - من أنسجة زوجها، تُحدث أثراً كبيراً في المرأة.

إنّ أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنّسبة للأمِّ لم تُفهم حتّى الآن إلى درجة كافية. مع أنّ الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة... ومن ثَمَّ فمن سُخْف الرأي أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة. ولذا يحق أن تُلَقَّنَ الفتاة التّدريب العقلي والمادّي، ولا أن تبث في نفسها المطامع التي يتلقاها الفتيان وتبث فيهم... يجب أن يبذل المربُّون اهتماماً شديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى، كذا لوظائفها الطّبيعية. فهناك اختلافاتٌ لا تنقضي بين الجنسين، ولذلك فلا مناصَ من أن نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عَالَم مُتمدّنٍ».

فمن هذا نعلم علماً يقيناً أنّ المرأةَ أساسُ الأسرة الصّالحة، وأنّ المرأة الصّالحة هي وحدَها أكثرُ نجاحاً في تأسيس الأسرة الهانئة، وهي وحدَها أكثرُ تفوّقاً في تحقيق السّعادة لأفراد الأسرة فهي الرّكن الرّكين والأساس المتين في بناء الأسرة السّعيدة الكريمة!.

## البحث الثالث:

# نظام الأسرة في الإسلام(١)

### حقائق وتأملات في قانون «نظام الأسرة في الإسلام»!

يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢). إنّه الخطاب «للنّاس»... بصفتهم هذه، لردهم جميعاً إلى ربِّهم «الذي خلقهم»... والذي خلقهم «من نفسٍ واحدة»... ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾.

إن هذه الحقائق الفطرية البسيطة هي حقائق كبيرة جداً، وعميقة جداً، وثقيلة جداً... ولو ألقىٰ النّاس أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة في حياتهم، وبنقلهم من الجاهلية - أو من الجاهليات المختلفة - إلى الإيمان والرّشد والهدى وإلى الحضارة الحقيقية اللائقة «بالنّاس» واللائقة «بالنّفس» واللائقة بالخلق الذي ربُّهُ وخالقُهُ هو الله تبارك وتعالى...

إنّ هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتّى:

**أولاً**: إنها ابتداءً تُذكّر «النّاس» بمصدرهم الذي صدروا عنه؛ وتردُّهم إلى خالقهم الذي أنشأهم في هذه الأرض... هذه الحقيقة التي ينساها «النّاس» فينسون كلَّ شيء، ولا يستقيم لهم بعدها أمراً!.

إنّ النّاس جاؤوا إلى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه... فمن الذي جاء بهم؟ إنّهم لم يجيئوا إليه بإرادتهم. فقد كانوا قبل أن يجيئوا عدماً لا إرادة له... لا إرادة له تقرر المجيء أو عدم المجيء. فإرادة أخرى - إذن - غير إرادتهم،

(١) دستور الأسرة في ظلال القرآن: لأحمد فائز، ص: ٤٩ - ٧٢، ط مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

obeikandi.com

هي الّتي جاءت بهم إلى هنا. . . إرادة أخرى - غير إرادتهم - هي التي قررت أن تخلقهم. إرادة أخرى - غير إرادتهم - هي التي رسمت لهم الطّريق، وهي التي اختارت لهم خط الحياة. . . إرادة أخرى - غير إرادتهم - هي التي منحتهم وجودهم ومنحتهم خصائص وجودهم، ومنحتهم استعداداتهم ومواهبهم ومنحتهم القدرة على التعامل مع هذا الكون الذي جيء بهم إليه من حيث لا يشعرون! وعلى غير استعداد؛ إلّا الاستعداد الذي منحتهم إياه تلك الإرادة التي جاءت بهم إلى هذا العالم، وخطت لهم طريق الحياة فيه، ومنحتهم القدرة على التّعامل معه، هي وحدها التي تملك لهم كل شيء، وهي وحدها التي تدبّرُ أمرَهم خيرَ تدبير. وأنّها هي وحدها صاحبة الحق في أن ترسم لها منابع حياتهم، وأن تشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم، وأن تصنع لهم قيمهم وموازينهم، وهي وحدها التي يرجعون إليها وإلى منهجها وشريعتها وإلى قيمها وموازينها عند الاختلاف في شأن من هذه الشؤون، فيرجعون إلى النهج الواحد الذي أراده الله ربُّ العالمين.

**ثانياً**: أنّها توحي بأنّ هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة، تتصل في رحم واحدة، وتلتقي في وشيجة واحدة، وتنبثق من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1] ولو تذكر النّاس هذه الحقيقة، لتضاءلت في حسهم كل الفروق الطّارئة، التي نشأت في حياتهم متأخرة، ففرّقت بين أبناء «النفس الواحدة»، ومزّقت وشائج الرحم الواحدة. وكلّها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية، وصلة النفس وحقها في المودة وصلة الربوبية وحقها في التقوى. . .

**ثالثاً**: الحقيقة الأخيرة التي تتضمنها الإشارة إلى أنه من النّفس الواحدة «خلق منها زوجها». . . كانت كفيلة - لو أدركتها البشرية - أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة، التي تردت فيها، وهي تتصور في المرأة شتى التصورات

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.

السخيفة، وتراها منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشّر والبلاء. . . وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً، خلقها الله لتكون لها زوجاً، وليبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فلا فارق في الأصل والفطرة، إنّما الفارق في الاستعداد والوظيفة. . . ولقد خبطت البشرية في هذا التّيه طويلاً. جُرّدت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان تحت تأثير تصوّر سخيف لا أصل له. فلما أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى، وأطلقت للمرأة العنان، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وأنهما ليسا فردين متماثلين، إنّما هما زوجان متكاملان.

والمنهج الرّباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد.

**رابعاً**: تُوحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة، فقد شاء الله أن تبدأ هذه النّبتة في الأرض بأسرةٍ واحدةٍ. فخلق ابتداء نفساً واحدة، وخلق منها زوجها، فكانت أسرة من زوجين.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾(١) الآية. ولو شاء الله لخلق في أول النّشأة رجالاً كثيراً ونساءً، وزوّجهم، فكانوا أسراً شتّى من أوّل الطريق، لا رحم بينهم من مبدأ الأمر، ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد، وهي الوشيجة الأولى. ولكنه - سبحانه - شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها، أن يضاعف الوشائج، فيبدأ بهما من وشيجة الربوبية - وهي أصل وأول الوشائج - ثم يثني بوشيجة الرّحم، فتقوم الأسرة الأولى من ذكرٍ وأنثى - هما من نفسٍ واحدةٍ وطبيعةٍ واحدةٍ وفطرةٍ واحدةٍ - ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالاً كثيراً ونساء، كلهم يرجعون ابتداء إلى وشيجة الربوبية، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني، بعد قيامه على أساس العقيدة.

ومن ثم هذه الرعاية للأسرة في النّظام الإسلامي، وهذه العناية بتوثيق

(١) سورة النساء، الآية: ١.

عُراها، وتثبيت بُنيانها، وحمايتها من جميع المؤثّرات التي توهن هذا البناء، وفي أول هذه المؤثّرات مجانبة الفطرة، وتجاهل استعدادات الرّجل واستعدادات المرأة وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض، وتكاملها لإقامة الأسرة من ذكر وأنثى.

وقد حشد التّشريع الإسلامي في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة حشداً كبيراً من مظاهر تلك العناية بالأسرة في النظام الإسلامي... وما كان يمكن أن يقوم للأسرة بناء قوي، والمرأة تلقى المعاملة الجائرة، وتلك النظرة الهابطة التي تلقاها في الجاهلية - كلِّ جاهليةٍ - ومن ثم كانت عناية الإسلام بدفع تلك المعاملة الجائرة ودفع هذه النظرة الهابطة. إنّ أحكام نظام الأسرة لا تذكر مجردة. كلا! إنها تجيء في جوٍّ يُشعر القلب البشري أنّه يُواجه قاعدةً كبرى من قواعد المنهج الإلٰهي للحياة البشرية، وأصلاً كبيراً من أصول العقيدة التي ينبثق منها النّظام الإسلامي. وإن هذا الأصل موصول بالله سبحانه مباشرة. موصول بإرادته وحكمته ومشيئته في النّاس، ومنهجه لإقامة الحياة على هذا النحو الذي قدره وأراده لبني الإنسان. ومن ثم هو موصول بغضبه ورضاه، وعقابه وثوابه، وموصول بالعقيدة وجوداً وعدماً في حقيقة الحال!.

ومنذ اللحظة الأولى يشعر الإنسان بخطر هذا الأمر؛ كما يشعر أن كل صغيرة وكبيرة فيه تنال عناية الله ورقابته، وأن كل صغيرة وكبيرة فيه مقصودة كذلك قصداً لأمر عظيم في ميزان الله تعالى. وأنّ الله يتولّى بذاته - سبحانه - تنظيم حياة هذا الكائن، والإشراف على تنشئة الجماعة المسلمة تنشئةً خاصّة تحت عينيه، وإعدادها - بهذه النشأة - للدّور العظيم الذي قدره لها في الوجود. وإن الاعتداء على هذا المنهج يغضب الله ويستحق منه شديد العقاب.

إنّ هذه الأحكام تذكر بدقة وتفصيل، ثم تجيء التّعقيبات الموحية بعد كل حكم، وأحياناً في ثنايا الأحكام، منبئةً بضخامة هذا الأمر وخطورته، وتلاحق الضّميرَ الإنساني ملاحقةً موقظةً مُحْيِيَةً مُوحيةً. وبخاصّة عند التّوجيهات التي يناط تنفيذها بتقوى القلب وحساسية الضّمير، لأنّ الاحتيال على النّصوص والأحكام ممكن بغير هذا الوازع الحارس المستيقظ.

## الأسرة قاعدة التّكوين الأولى:

إنّ دستور الأسرة جانب من التّنظيم للقاعدة الرّكنيّة التي تقوم عليها الجماعة المسلمة، ويقوم عليها المجتمع الإسلامي. هذه القاعدة التي أحاطها الإسلام برعايةٍ ملحوظةٍ، واستغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهلية جهداً كبيراً، نراه متناثراً في سور شتى من القرآن، محيطاً بكل المقومات اللازمة لإقامة هذه القاعدة الأساسية الكبرى.

إنّ النّظام الاجتماعي الإسلامي نظامُ أسرةٍ، بما أنّه نظام ربّانيّ للإنسان ملحوظٌ فيه كلُّ خصائص الفطرة الإنسانيّة وحاجاتها ومقوّماتها. وينبثق نظام الأسرة في الإسلام من معين الفطرة وأصل الخِلْقة، وقاعدة التّكوين الأولى للأحياء جميعاً وللمخلوقات كافّةً... تبدو هذه الفطرة واضحة في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١). ومن قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

ثم تتدرج النظرة الإسلامية للإنسان فتذكر النفس الأولى التي كان منها الزوجان، ثم الذّرية، ثم البشرية جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٣)... ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ﴾(٤)... ثم تكشف عن جاذبية الفطرة بين الجنسين، لا لتجمع بين مطلق الذكران ومطلق الإناث، ولكن لتتجه إلى إقامة الأسر والبيوت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ﴾(٥)... ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ﴾(٦)... ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٧)... ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

(٢) سورة يسٓ، الآية: ٣٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ١.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٥) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾[1] . . . فهي الفطرة تعمل، وهي الأسرة تُلبّي هذه الفطرة العميقة في أصل الكون وفي بنية الإنسان. ومن ثم كان نظام الأسرة في الإسلام هو النّظام الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني. بل من أصل تكوين الأشياء كلِّها في الكون، على طريقة الإسلام في ربط النّظام الذي يقيمه للإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله ومن بينه هذا الإنسان. . .

والأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولّى حماية الفراخ النّاشئة ورعايتها، وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها، وفي ظله تتلقى مشاعر الحبّ والرحمة والتّكافل، وتنطبع بالطابع الذي يُلازمها مدى الحياة؛ وعلى هديه ونوره تتفتَّحُ للحياة، وتُفسِّر الحياة، وتتعامل مع الحياة. والطّفل الإنساني هو أطول الأحياء طفولة، تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى.

ذلك أنّ مرحلة الطّفولة هي فترة إعدادٍ وتهيّؤٍ وتدريبٍ للدّور المطلوب من كلِّ حيٍّ باقٍ على حياته. ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة، ودوره في الأرض هو أضخم دور. . . امتدتْ طفولتُه فترةً أطول ليحسن إعداده وتدريبُهُ للمستقبل. . .

ومن ثمَّ كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أي طفل لحيوان آخر، وكانت الأسرة المستقرّة الهادئة ألزم للنّظام الإنساني، وألصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره في هذه الحياة!.

وقد أثبتت التّجارب العملية أن أيّ جهاز آخر غير جهاز الأسرة لا يُعوّض عنها، ولا يقومُ مَقَامَهَا، بل لا يخلو من أضرار مفسدة لتكوين الطّفل وتربيته، وبخاصّة نظام المحاضن الجماعية التي أرادت بعض المذاهب المصطنعة المتعسفة أن تستعيض بها عن نظام الأسرة في ثورتها الجامحة الشاردة المتعسفة ضد النّظام الفطري الصّالح القويم الذي جعله الله للإنسان، أو التي اضطرت بعض الدّول الأوروبية اضطراراً لإقامتها بسبب فقدان عددٍ كبيرٍ من الأطفال

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٠.

لأهليهم في الحرب الوحشية المتبربرة التي تخوضها الجاهلية الغربية المنطلقة من قيود التّصور الدّينيّ، والتي لا تفرق بين المسالمين والمحاربين في هذه الأيام؟! أو التي اضطروا إليها بسبب النظام المشؤوم الذي يضطر الأمهات إلى العمل، تحت تأثير التّصورات الجاهلية الشائهة للنظام الاجتماعي والاقتصادي للإنسان. هذه اللّعنة تحرم الأطفال حنَانَ الأمهات ورعايتهنّ في ظل الأسرة الهانئة الحانية؛ لتقذف بهؤلاء المساكين إلى المحاضن، التي يصطدم نظامها بفطرة الطفل وتكوينه النّفسي، فيملأ نفسه بالعُقَدِ والاضطرابات... وأعجب العجب أن انحراف التّصورات الجاهلية ينتهي بناس من المعاصرين إلى أن يعتبروا نظام العمل للمرأة تقدماً وتحرّراً وانطلاقاً من الرجعية! وهو هذا النّظام الملعون، الذي يُضحي بالصّحة النّفسية لأغلى ذخيرة على وجه الأرض وهي «الأطفال» الّذين هم رصيدُ المستقبل البشري... وفي مقابل ماذا؟ في مقابل زيادة في دخل الأسرة، أو في مقابل إعالة الأمّ، التي بلغ من جحود الجاهلية الغربية والشّرقية المعاصرة وفساد نظمها الاجتماعية والاقتصادية أن تنكل عن إعالة المرأة التي لا تنفق جهدها في العمل، بدلَ أن تنفقه في رعاية أعزّ رصيدٍ إنساني وأغلى ذخيرةٍ على وجهِ هذه الأرض.

ومن ثَمَّ نجدُ النّظام الاجتماعي الإسلامي، الذي أراد الله به أن يدخل المسلمون في السّلم، وأن يستمتعوا في ظلّه بالسّلام الشّامل... يقوم على أساس الأسرة، ويبذل لها من العناية ما يتفق مع دورها الخطير... ومن ثَمَّ نجد في سُوَرٍ شَتّى من القرآن الكريم تنظيمات قرآنية للجوانب والمقوّمات التي يقوم عليها هذا النظام المُحْكم المتين.

إنّ الإسلام أقام نظام الأسرة على أساس ثابتٍ دقيقٍ مستمدٍّ من الواقع. وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية بما فيها من الحقّ ومن مطابقة الواقع الفطري العميق... وكل نظام يتجاهل حقيقة الأسرة الطبيعية هو نظام فاشلٌ، ضعيفٌ مزوَّرُ الأُسُس لا يمكن أن يعيش حياةً كريمةً هانئةً مستقرّةً. ولقد عني الإسلام بصيانة الأسرة وروابطها من كل شبهة ومن كل

دخيلٍ؛ وحياطتها بكل أسباب السّلامة والاستقامة والقوّة والثّبوت ليقيم عليها بناءَ المجتمع المتماسك السّليم النّظيف العفيف.

إنَّ القرآن يبني الأسرةَ، يبنيها ليُشكّل منها مجتمعاً يقوم على أمانة دين الله في الأرض، ومنهجه في الحياة، ونظامه في النّاس. ولم يكن بُدٌّ أن يبني نفوسها أفراداً ويبنيها جماعةً، ويبنيها عملاً واقعياً... كلها في آن واحد... فالمسلم لا يبني فرداً إلّا في جماعة، ولا يُتصور الإسلام قائماً إلّا في محيط جماعةٍ منظّمةٍ ذات ارتباطٍ، وذات نظام، وذات هدفٍ اجتماعي منوطٍ في الوقتِ ذاتهِ بكلّ فرد فيها. هو إقامة هذا المنهج الإلٰهي في الضّمير وفي العمل مع إقامته في الأرض، وهو لا يقوم في الأرض إلّا في مجتمع، وهو لا يقوم في مجتمع إلّا في أسرةٍ تعيش وتتحرك وتعمل في حدود ذلك المنهج الإلٰهي. لذلك عني الإسلامُ بتنظيم شؤون الأسرة، وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة؛ وحمايتها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية، وحمايتها كذلك وحماية المجتمع معها من انتشار الفاحشة والاستهتار بالحرمات، ووهْن الروابط العائلية. لقد أقام الإسلام تنظيمه للأسرة على قواعد الفطرة، واعتبر هذا الموضوع أساسي وهام، الذي يترتب على تنظيمه جريان الحياة الإنسانية في مجراها الفطري الهادىء الصّالح، كما يترتب على انحرافه فساد في الأرض كبير.

لقد حدد الإسلام الطريقة التي يحب الله أن يجتمع عليه الرجال والنساء في مؤسسة الأسرة النظيفة، ويكشف عمّا في هذه الطّريقة من تيسير على النّاس وتخفيف، إلى جانب نظافتها وطهارتها. ويقرّر القواعدَ التّنظيمية التي تقوم عليها تلك المؤسّسة الأساسية، والحقوق والواجبات المُلْقَاة على عاتق الطرفين المتعاقدين فيها.

ومما يلاحظ أن القرآن يربط ربطاً دقيقاً بين هذه التنظيمات والأحكام وبين الأصل الأول الكبير للإيمان: وهو أنَّ هذه التّنظيمات والأحكام صادرة من الله، وهي مقتضىٰ ألوهيته، فأخصّ خصائص الألوهية هو حاكميّة الشّريعة، والتّشريع للبشر، ووضع الأُسس التي تقوم عليها حياتُهم وارتباطاتُهم.

والقرآنُ ما فتىء يُكرر هذا الارتباط الدّقيق؛ ويُنبّه إلى هذه الخاصيّة من خصائص الألوهية، ويُكرر كذلك الإشارة إلى صدور هذه التّنظيمات عن العليم الحكيم... وهي إشارة ذات مغزى... فالأمرُ في هذا المنهج الإلٰهي كله هو قبل كل شيء أمر العلم الشّامل الكامل، والحكمة المدرِكَةُ البصيرة... هذه الخصائص الإلٰهية التي يفقدها الإنسان، فلا يصلح بعدها أبداً لوضع المنهج الأساسي لحياة الإنسان! ومن هنا شقوة الإنسان في الأرض كلّما حادَ عن منهج العليم الحكيم، وراح يتخبط في التيه بلا دليل، ويزعم أنه قادر، بجهله وطيشه وهواه، أن يختار لنفسه ولحياته خيراً مما يختاره الله.

والأمر الآخر الذي يؤكده القرآن ويكرره: هو أن منهج الله هذا أيسر على الإنسان وأخف وأقرب إلى الفطرة، من المناهج التي يريدها البشر ويهوونها، وأنّه من رحمة الله بضعف الإنسان أن يشرّع له هذا المنهج، الذي تكلفه الحيدة عنه عنتاً ومشقة، فوق ما تكلفه من هبوط وارتكاس. ونرى مصداق هذه الحقيقة في واقع البشر التّاريخي وهي حقيقة واضحة في هذا الواقع، لولا أنّ الهوى يطمس القلوب، ويُعمي العُيون، عندما تُلقي الجاهليةُ على القلوب والعُيون غَبَشَها وطُغيانَها، وتحول بينها وبين الحقائق.

## البحث الرابع:

## الأسس المتينة لبناء الأسرة السّليمة

لا يكفي حُسْنُ اختيارِ الشّريك الصّالح لبناء البيت السعيد، بل لا بدّ مع ذلك من وضع أهداف حسنة خيرة للزواج ولبناء البيت، وذلك ليكون بناء البيت محكماً قوياً شامخاً، لا يتزعزع لهزات الأهواء والنزوات والأغراض الشّخصية، ولا يتهدم لعواطف الشهوات الطّارئة تهبّ من هنا وهناك، ثم لتستمر حياة البيت في هدوء وسكونة.

لهذا وذاك رأينا من الأهمية بمكان أن نذكر هنا أهم تلك الأهداف التي يجب أن تكون واضحة أمام المُقْدِمين على الزواج وعلى بناء البيت السّعيد، ونُحدّدها بالأهداف الآتية:

## أولاً: تكوين رباط اجتماعي متين:

ذلك أنه عن طريق الزواج تتكوّن الأسرة، وعن طريقه أيضاً تتكون الروابط بين الأسر ثم بين المجتمع، ثم بين المجتمع والأجناس والشعوب والقبائل المختلفة، ولعل الحكمة من زواج الرّسول ﷺ من قبائل مختلفة هي الرّبطُ فعلاً بين هذه القبائل والتآلف بينها، وقد أمر الإسلام المسلمين بالتّعارف على اختلاف قبائلهم وأجناسهم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾(١). والزواج وسيلة من وسائل التّعارف والتّآلف والتّرابط، ولعل من أهداف الرّسول ﷺ في أمرِهِ بالزّواج من غيرِ الأقارب هو هذا التّرابط، وأخذُ هذا في الاعتبار له أهمية، إذ أنه من عوامل دوام الرّباط الزوجي، لأن قطع هذا الرباط لبعض الدواعي يؤدي إلى قطع الرباط بين الأسرتين أو أكثر.

هذه الفكرة تجعلهما يتحملان ما يقع بينهما من مشاحنات أو أذى، ولا يُقدمان على الافتراق مراعاةً لِما بين الأسرتين من التّرابط والتآلف. وهناك جانب آخر من الرباط وهو ربط الفرد غيره بزوجه وأولاده، وهذا مهمٌّ جداً في حياة الفرد إذ أنّه يقضي على شعور الفرد بالوحدة، وهنا أمرٌ يتعلّق بهذا الموضوع وهو أن بعض الأفراد من الجنسين قد يشعر في نفسه بضعف الدافع الجنسي ويدفعه هذا إلى الإعراض عن الزواج، هذا الإعراض عن الزواج خطأ في النّظرة الإسلامية، لأنّ رسالة الزّواج ليس أمراً فردياً فقط كما قلنا بل هي أمرٌ اجتماعي أيضاً، لأنّ الله تعالى عندما خلقَهُ خلَقَ مقابلاً له من الجنس الآخر، فإذا هو استطاع الحياة بدون الزواج فقد لا يستطيع الآخر ذلك، وبالتّالي فإنّ عدم زواجه

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

يسبب حرمان الآخر أو وقوعه في الحرام، ولهذا شجَّعَ الإسلامُ على الزّواج واعتبر المعرض عنه معرضاً عن سنّة الإسلام.

فليس للأفراد حرية في أن يتصرَّفُوا في أنفسهم كما يشاؤون في المسألة... هذا هو الجانب البيولوجي من الحاجة، وهناك الجانب السيكولوجي النفسي من الحاجة إلى الزّواج أيضاً، والجانبان مرتبطان، فكما أنّ عدم إشباع هذا الدافع يُؤدي من الناحية البُيولُوجيّة إلى تقليل نشاط الغدد الجنسية التي تؤدي بدورها إلى تقليل نشاط الجسم، كذلك تؤدي من النّاحية السيكُولُوجيّة إلى بعض الاضطرابات النفسية، والقلق، والانحراف عن السواء في بعض المظاهر السلوكية، وهذا مرتبط أيضاً بالعوامل البيُولُوجيّة والبيئيّة والسيكُولُوجيّة.

ويمكن تقليل حدة الشهوة وأثرها عن طريق الابتعاد عن الأجواء المثيرة، وعدم تناول الأطعمة المقوية لها، وعن طريق الصوم، وتربية النّفس، إلّا أنّه ليس هناك طريق أسلم من طريق الزّواج، ولهذا قال تعالى وهو أعلم بخلقه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

فالسّكنُ النّفسي والمودّة والرّحمة أعانتْهُ على تحمّل المسؤوليات، وجعلتْهُ يُواجه الحياة بشجاعة وبسالة ويزيد إحساسُه بالسرور ويزيد نشاطه في العمل، لأنّه يشعر في قرارة نفسه بأنه يعمل لنفسه ولأحب النّاس إليه وهم أولاده الذين انفصلوا عن نفسه وعن فلذات كبده، والشّعور بالوحدة في داخل المجتمع يُقلّل نشاطه وفاعليته وحبّه للنّاس، وهذا يُؤدي بدوره إلى الانتحار عند مواجهة عظائم الصعوبات القاهرة والأزمات الشديدة في الحياة.

ولهذا كانت نسبة المنتحرين من العُزّاب أكثر من المتزوجين، ويُرجّحُ العلماء السببَ إلى ما بيّنّاه، يقول «دور كايم» المفكر الاجتماعي الفرنسي: «فالمرء يزداد تعرضاً لخطر الانتحار كلّما انفصمت العُرى التي تربطه بمجتمعه أيًّا

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

كانت، أي كلّما أوغل في الحياة الأنانية، ولذلك نرى أن الانتحار بين العُزّاب يكاد يبلغ ثلاثة أضعاف عددِه بين المتزوّجين، ولا شك أن الفرد عندما يشعر بالروابط المتينة والوشائج العظيمة، وتراوده فكرة الانتحار عند مواجهة الأزمات يشعر أنّه بذلك لا يقضي على حياته فقط بل يقضي على حياة أولاده وزوجته، وهذا يجعله يتحمل المسؤوليات والصّعاب، ولا يقدم على الانتحار». ويقول «دور كايم» أيضاً: «أنّ نسبة الانتحار تتصاعد كلّما قلّت نسبة عدد العائلة، وأنّه بين الأزواج الذين لم ينجبوا أطفالاً أكثر من نسبته بين الأزواج الذين لهم أطفال، وكلّما يكثر عدد أطفالهم كلّما تقلُّ نسبة الانتحار».

**ثانياً: تحقيق حاجات الطّبيعة الإنسانية:**

إنّ الله خلق هذا الإنسان وأودع فيه حاجات أولية، سواء كانت عضوية أو نفسية وهي الحاجات التي لا بدّ من إشباعها، وعدم إشباعها يؤدي إلى أضرار تقاس بدرجة ضرورتها. من هذه الحاجات الحاجة إلى الجنس أو الدافع الجنسي، وقوة هذا الدافع كما ذكرها العلماء تأتي في الدّرجة الثالثة بعد الدافع إلى الطعام، ودافع الأمومة، ويختلف الأفراد في درجة قوة هذا الدافع سواء كان سبب هذا الاختلاف الوراثة أو العوامل البيئيّة، وقد يفقد الفرد هذا الدافع كلياً أو جزئياً، نتيجة بعض العوامل المرضية، والسكينة التي يشعر بها الإنسان إزاء زوجه تعتبر من الحاجات السيكولوجية التي لا يستغني الإنسان عنها ولا يجدها في غير الزواج، هذا السكن ليس هو السكن العقلي، أي الخلو من المشكلات والمشاغل الذّهنية وليس هو السكن المادي، أي الاستقرار على شيء مريح، بل هو سكن روحي وقلبي، سكن روح إلى روح من جنسه، وسكن قلب إلى قلب من جنسه، فتُصبح الروحان روحاً واحدة، ويُصبح القلبان قلباً واحداً.

والمودة هنا ليست من نوع المودة بين الآباء والأبناء ولا من نوع المودة التي توجد بين الأصدقاء، وكذلك الرحمة هذه الرحمة الخاصة بين الزوجين ليست كغيرها بين النّاس الآخرين، وإنّما هي أمور خاصة بالحالة الرّوحية بين الزوجين، وكلُّها تعبيرٌ خاص عن العلاقة الخاصّة بينهما، ولا نستطيع الكشف

عن ذلك، فهي لذلك سرّ من أسرار الله تعالى، ولهذا كانت آيةً من آياته يجدها آيةً مَنْ يُفكر فيها ويتدبّرها، ومَنْ يسعى بزواجه لبناءِ أسرة مؤمنة، ومَنْ يسعى إلى رفد المجتمع بالأعضاء الصّالحين؛ ليقوم هذا المجتمع على الخير والبرّ والتقوى، وغايتُهُ إتمام أمرِ الله وتحقيقُ حكمتِهِ وآياتِهِ، ومن هنا قال بعضُ علماء النّفس: إنّ الاتصال غير الشّرعي بين الرجل والمرأة يتم فيه اتصال الجسد بالجسد ولا يتم فيه اتصال الروح بالروح، لأنّ الزّانية تُعطي بِضْعَها ولا تعطي قلبها وروحها، ولتتم السعادة لا بدّ من الاتصال الجسمي والروحي معاً. ولهذا فالاتصال غير الشرعي اتصال ناقص بالإضافة إلى ما يعتوره من الخوف من العار ومن عدوى الأمراض، والشعور بالذنب وتأنيب القلب.

وهكذا نجد أنّ الزّواج أمرٌ فطري في الإنسان وسنّة الإسلام الموافقة لسنّة الحياة والكون، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) وقال الرسول ﷺ: «**مَنْ أحبَّ فطرتي فليستنّ بسنّتي وإنّ مِنْ سُنّتي النّكاح**»(٢).

وهكذا جاء الإسلام موافقاً للفطرة ولسنّة الكون، وهكذا تلتحم سنّةُ الإسلام مع سنة الكون في هذه الرابطة الزوجيّة المباركة.

## ثالثاً: تحقيق الوقاية من الأمراض والانحرافات:

لقد أقرَّ جميع الأطباء أن هناك أمراضاً كثيرة معدية تنتقل وتنتشر عن طريق الاتصال غير الشرعي أو بتعبير آخر عن طريق الفوضى الجنسية، ويخصون انتقال بعض الأمراض بالزّنا ويسمونها بالأمراض الزهرية أو السّرية. وهناك ما هو أخطر منها هو مرض «الإيدز» الخطير.

ولا أستطيع هنا تفصيل كل أنواع هذه الأمراض الأخيرة وأعراضها

(١) سورة يسٓ، الآية: ٣٦.
(٢) الجامع الصغير ج ١٦٠ وهو حديث صحيح.

وأضرارها، لأنّ مجالها واسع قد أُلّف فيها كتب متخصصة كتبها الأطباء المتخصصون. فمن شاء التّوسع فيها فليرجع إليها، ولكن سأعطي هنا فكرة موجزة عن واحد من هذه الأمراض، وهو مرض السفلس «الزهري» ليعرف النّاس الأضرار اللاحقة بهم وبذرّيّاتهم من ارتكاب جريمة الزنا، واستفحال أمرها في المجتمع التي لا وسيلة للقضاء عليها إلّا بالزواج، كما أمر الإسلام. لمنع الفوضى الجنسية في المجتمع. ومرضُ السّفلس من الأمراض الخبيثة التي لم يستطع الأطباء القضاء عليها، ويتم انتقال هذا المرض وانتشاره في ٩٠٪ من حالاته عن طريق الزنا، و٨٪ عن طريق القبلات و٢٪ عن طريق استعمال أدوات المصاب به. وجراثيم هذا المرض أدق ما يكون، ولهذا تنتقل حتى من القُبلات التي تحدث في الجلد خدشات لا نراها بأعيننا ولا نحس بها، ومن خبثه أيضاً أنه قد لا تظهر أعراضه القاتلة أحياناً بسرعة إذ قد تظهر بعد عشرين سنة من إصابته مما يجعله في هذه الحالة مستحيل المعالجة، وكلّما يتأخر كلّما تصعب المعالجة ولا تظهر بسرعة حتى يعرض المريض نفسه للطبيب، وبعض أعراضه الأولية قد يبدو بسيطاً بحيث لا يرى المصاب بضرورة الرجوع إلى الطبيب، وأهم أعراض هذا المرض تشويه الخلقة وظهور البثورات القارحة وآلام تفتت عظام الجمجمة وأحياناً يؤدي إلى التهاب الشرايين في المرحلة الثانية من إصابته. وفي المرحلة الثالثة إذا لم يُدَاوَ يُؤدّي إلى الأمراض العصبية بانحلال النخاع الشوكي والشلل العام. كما يسبب الجنون إذا انتقلتْ جراثيمه إلى المخ عن طريق الدم. وأخيراً يكون سبباً للإجهاض، وقليل من الأطفال يعيشون إذا أصيبوا وهم أجنة في أرحام أمهات مصابات به، وهكذا لا يجني هؤلاء الزناة على أنفسهم بل يجْنون على أولادهم وعلى أزواجهم.

وأخطرُ من هذا المرض «مرضُ الإيدز» الذي يقضي على جهاز المناعة في الجسم، ليدعَ الجسم مُعرَّضاً للفتك به من أيّ مرضٍ يُواجهه في أقرب وقت، ولا علاج له، ولا سبيل إلى التخلّص منه إلّا بموت المصاب، حتى لا ينقله إلى غيره. وأكثر ما ينتشر هذا المرض بين الزّناة وأصحاب الفاحشة.

## الزّواج في الإسلام وقاية من المهالك:

لقد كانت سنّة الله أنْ بدأت الحياةُ الاجتماعية بالزّواج بين آدم وحواء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾(١). فالزّواج هو القانون الاجتماعي السليم، ولن يجد الناس بديلاً لهذا القانون، ولهذا قد اتفقت الرسالات السّماوية في هذا المبدأ وفي تحريم الاتصال غير الشرعي.

وقد ينظر الشبان والفتيان إلى عدم الزّواج نظرة الحرية، وقد يُحبِّذُونه ويجذبهم مبدأ قضاء شهواتهم مع مَنْ شاؤوا وكيفما أرادوا وفي أي وقتٍ رغبوا، هذه النّظرة وتلك الفكرة قد تبدو لهؤلاء في عنفوان شبابهم نظرة سليمة وفكرة لامعة، إلّا أنّ الأمر عندما يؤول إلى واقع عملي وبعد زوال طيش الشباب، فإنهم يدركون عاقبتها الوخيمة ويدركون جيداً أنّه ليس هناك فكرة أكثر فتكاً بكيان الفرد والمجتمع من هذه الفكرة، لأنّ من ورائها شيوع الأمراض الفتّاكة بالبشر.

ولننظر إلى بعض المجتمعات التي تحولت فيها تلك الفكرة إلى حياة عملية لنرى النتيجة، ولنضرب لذلك مثلاً بروسيا التي سادت فيها تلك الفكرة، وخاصة عند الشباب في المراحل الأولى من حياة الفكرة الشيوعية، وبوجه خاص شيوعية النّساء والدعوة إلى أنه لا حاجة إلى الأسرة، ولا حاجة كذلك إلى الزواج، وليس هناك حبّ حقيقي روحي وإنّما هي تعبير عن حياة جنسية مادّيّة.

وعندما انغمس الشّباب في الحياة الجنسية دون قيد أو شرط، وصرفوا كلّ اهتمامهم نحو الإباحية، أدرك العقلاء والأطباء أنهم متّجهُون نحو الهلاك لا محالة. وكان لا بدّ لكل عاقل أنْ لا يرضى أن يكون إباحيًّا، وتأبى نفسه أن ينظر إلى المرأة لمجرد كونها أنثى يتخذها أداةً لقضاء شهواته ولذّاته بالحرام والدّنس.

## أخطار الإباحة الجنسيّة على الأزواج:

حين انتشرت فكرة الإباحية الجنسية في أوروبا وأمريكا وجدتْ رواجاً،

(١) سورة فاطر، الآية: ١١.

والذين تحمّسوا لهذه القضية سرعان ما دفعوا ثمن ذلك غالياً، فقد انتحر كثير من الأزواج عندما وجد شريكتَه مع الغير، وهذا قول أحدهم قبل الانتحار: «زملائي وحكومتي لا أزال مؤمناً بتعاليمي وجهادي في القضاء على الغَيرة الجنسيّة، ولكنّي رغم تقدمي في السّنّ أحببتُ زوجتي الجميلة حُبًّا مفرطاً، ولمّا كانت خيانتها الزوجية وارتماؤها في أحضان سِوَايَ أمراً لم أعد أُطيقه، فقد ارتطمتْ سفينةُ حياتي بصخورٍ صدّعتها ولم يكن للحياة بعد ذلك معنى، وكان لا بدّ من أخذ حياتي بيدي فمعذرةً، الوَدَاع» ثم انتحر.

وهكذا لا يجد الزّوج الذي تخونه زوجته ولا يستطيع على منعها من ممارسة الإباحة الجنسية «أي ممارسة الخيانة الزوجية» لا يجد أمام ذلك إلّا أن يُنهي حياته بيده، ولا عقوبة أفظع من حكم الإنسان على نفسه بنفسه بالإعدام، مع تنفيذه بيده.

لذلك لا بدّ من الحيلولة بين هذه الإباحية المنكرة، وبين الحياة الزوجية، حفاظاً على كيانها، وإبقاءً على أفرادها.

وبعد هذا كله نُؤكّد للشّباب مرة أخرى أنّهم عندما ينساقون وراء هذه الفكرة فكرة الإباحية أو الفوضى الجنسية، فإنّهم عند ذلك لن يجدوا حدوداً لقضاء شهواتهم من ناحية، ولن يجدوا الاطمئنان النفسي من ناحية أخرى، ولن يستطيعوا أن يحتفظوا بصحتهم من ناحية ثالثة، لأنّ الشّهوة طاقةٌ للإنسان، فإذا زالت الحواجز والضوابط لها تبددت هذه الطاقة وتلاشت، والإنسان إذا تجرّد من الضّوابط التي تحميه، فلن يستطيع أن يقف أمام شهوته الدافعة، فكل امرأة يراها ويعجب بها يحاول قضاء وطره فيها، وإذا هي لم ترغب فيه يجد الكآبة في نفسه لأنَّهُ لم يستطع تحقيق غرضه وإشباع دوافعه، وإذا تحقق مطلبه في كل مرة فإنّه يُبدد قواه ويفقد صحته، ثم يفقد إرادته والسيطرة أمام رغباته وشهواته الطّاغية، وبالإضافة إلى هذا يصبح همه وهم أمثاله السعي وراء النّساء يلهثون وراءهنّ في الشّوارع كالكلاب، وقد تفعل النّساء مثل ذلك، وهكذا سيبحث كل واحد عن ليلاه. والتي يعتبرها ليلاه قد لا تقبل أن تكون ليلاه والعكس صحيح وهكذا دواليك.

ثم إنّ تحكّم الشّهوات في حياة الإنسان يضيع السموّ الروحي والاهتمامات اللائقة بالإنسانية، فيضيع العمل الجاد المخلص من أجل المجتمع ومن أجل الأمّة ومن أجل الإنسانية جمعاء، ومن ثم تختفي الجوانب الرفيعة من الحياة وتتحول الحياة إلى حياة نتنةٍ وإلى وباءٍ مستفحل وإلى ظلام دامسٍ يقعُون فيه ثم يحاولون الخروج فلا يستطيعُون!.

وقد يظن البعض أنني بذلك مبالغ في الوصف، غير أنني أقول: إنّ ما كتبتُهُ هنا لا يساوي عشر ما كتبه كبار الأطباء والاجتماعيين في الغرب عن مضار الزنا وآثاره، وتحول الناس عن الزواج الطّاهر وحياة البيت السليمة ثم ما آلت إليه الحياة الأُسريّة من عدم الاستقرار وما إلى ذلك، وإنّي ما اختبرت من هؤلاء الذين سلكوا هذا الطريق الخاطىء إلّا ورأيتهم نادمين على فعلتهم وغير راضين عن مسلكهم، يحسب الرّائي من بعيد أنّهم في سعادة، ولكن في الحقيقة ظاهرهم سعيد وباطنهم جحيم. ولهذا فلا نكون متعصّبين للإسلام إذا قلنا أنّه خير دين جاء بقوانين أو تشريعات ناجحة في هذا المجال، إنّه جاء بنظام يحتفظ النّاس فيه بصحتهم البيُولُوجيّة والسيكُولُوجيّة، فلا يُبدِّدُون طاقتهم لأنّه منع من الافتتان وحرم الزنا وأباح الزّواج، والزّواج لا يهلك الطاقة، لأنه ليس هناك مثيرات فاتنة، يلقاها الإنسان كل يوم، فالزوجة مثيرةٌ عادية. ثم إنّه وجّهَ الإنسانية إلى الحياة الرفيعة والسّمو والعمل من أجل النّاس ومن أجل الدِّين ومن أجل الإنسانية.

ولهذا كان الإسلام نوراً أمام النّاس ونهجاً سليماً للحياة الفردية والاجتماعية، وصدق الله العظيم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1].

والزواج أخيراً في نظر الإسلام ليس كله تكاليف، وإنّما إلى جانب التكاليف فيه متعة، فالغُنم بالغُرم مبدأ من مبادىء الإسلام، والأمل في التمتع

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

يدفع الإنسان دائماً إلى النشاط والاستمرار في العمل وتحمل المسؤوليات والقيام بالأعباء.

والإنسان بحاجة إلى التمتع في الحياة، أحياناً تكون الحاجة إليه جسميّة وأخرى نفسيّة وثالثة روحيّة، ولأنّه يُرفِّهُ عن الإنسان ويُسرِّي عنه.

ولهذا أباح الإسلام التّمتّع في جميع مناحي الحياة، ولكن في حدود الحلال أو التّمتّع الطّيّب لا الخبيث منه، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾(١). وقال الرّسول ﷺ: «**الدّنيا مَتَاعٌ، وخيرُ متاعِها المرأةُ الصّالحةُ**»(٢) وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

## رابعاً: إنجاب ذرّيّة صالحة لبناء أمّةٍ صالحة:

هناك غرضان هامّان من الإنجاب، الأول تحقيق حاجة في نفس الفرد، فالإنسان يُحب أنْ يرى صورةَ نفسهِ في ولده، ويرغب أن يخلفه في الأرض يرثه ويأكل ثمار أتعابه، فمن هنا كانت الأولاد زينةً كما أنّ المال والجاه زينةٌ، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾(٤) والتّمتّع بزينة الدنيا مباحٌ - كما قلنا - طالما نُؤدّي حقَّ الله وحقَّ العبادِ.

والغرض الثاني: هو إنجاب ذرّيّة صالحة لتعمير الأرض، واستمرار الأمّة ودوامها، فإنّ الله خلق هذه الدنيا وخلقَ الناس وأمرَ بالزواج لتدومَ هذه الحياة على نحوٍ ما، ويعيش النّاسُ على نمط من الحياة الاجتماعية الصّالحة. وقد دعا الإسلام إلى تحقيق هذا الهدف النّبيل بوسائل: منها تشجيعُ الآباء على التّربية

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٢) رواه مسلم ج٢، ص: ١٠٩٠ كتاب الرضاع.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

الصّالحة، واعتبر تكوين ذرّيّة صالحة صدقةً جاريةً له بعد حياته، يناله ثواب آثارها ما دامت قائمة صالحةً، فقال الرّسول ﷺ: «**إذا ماتَ ابْنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلّا مِنْ ثلاث، صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَعُ بِهِ، أو ولدٍ صالحٍ يَدْعُو لهُ**»(١).

وفي الأثر: «**ما وَرَّث والدٌ وَلَداً خيراً مِنْ أدبٍ حسنٍ**»(٢).

وباعتبار أن البيت المدرسة الأولى لتعليم الأولاد، دعا الرسول ﷺ إلى تربية مَنْ ليس لهم من يُربيهم من أبناء وبنات المسلمين، فقال: «**مَنْ عَالَ ثلاثَ بناتٍ فأدّبهُنّ وزوّجهُنّ وأحسنَ إليهنّ فله الجنّةُ**»(٣). وذلك أمر لا بدّ منه لبناء خير أمةٍ صالحةٍ.

## خامساً: تطبيق مبادىء إسلامية وسنّة نبوية:

من أجل كل ما سبق جعل الإسلامُ الزّواج مبدأ من مبادئه وجزءاً من شريعتِهِ؛ فمَنْ عدَلَ عن الزواج وتركه من غير عذرٍ فقد تركَ جزءاً من الدِّين، ولهذا دعا الرسول ﷺ الشباب إلى الزواج فقال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(٤). ولقد حدّد الرسول ﷺ في هذا الحديث الغاية الدينيّة من الزواج في هدفين:

**الأول**: أنّه يجعل النّاس يغضُّون أبصارهم عن النّظر إلى المحرمات.

**والثاني**: أنّه وسيلة لحفظ النّاس من الوقوع في الزّنا. غير أنّ الإسلام إذا كان قد شجع على الزّواج فليس ذلك على الإطلاق، بل إنّه مقيد بشرط توفر الإمكانيات للقيام بأعباء الزّواج. وقد عبّر الرسول الكريم ﷺ عن هذه الإمكانية

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١١ ص: ٨٥، باب (الوصية بشرح النووي).
(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج ٨، ص: ١٠٦ كتاب (الأدب).
(٣) سنن أبي داود ج ٤، ص: ٤٥٩ كتاب (الأدب).
(٤) فتح الباري بشرح البخاري ١١، ص: ٨ كتاب (النكاح) – صحيح مسلم ٢ ص: ١٠١٨ كتاب (النكاح).

بالباءَةِ وهي الكفاية للقيام بالمسؤوليات الزّوجية، ومن لم تتوفر عنده هذه الكفاية فليس مطالباً دينياً بالزّواج، ولا يكون مسؤولاً عن عدوله عنه، بل إنّ الإقدام على الزّواج بدون توفر الشّرط لا يجوز، وقد نتج عن زواج هؤلاء الذين لا يملكون هذه الكفاءة مشكلات اجتماعية فلم يضروا أنفسهم فقط بل أضرُّوا أولادهم ومجتمعهم وزوجاتهم أيضاً، فكم نرى من أولاد هؤلاء هائمين على وجوههم في الشوارع لا يجدون مأكلاً ولا ملجأً ثم يخرجون عالةً على المجتمع، ولهذا فقد أمرَ الله هؤلاء بالاستعفاف وعدم الزّواج فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(١).

وهنا تحدث مشكلة عند عدم وجود المال، وهي: ماذا يفعل الشاب في عنفوان شبابه؟ وقد قلنا إن عدم إشباع هذا الدافع يضره، فإذا منعناه عن إشباعه يحصل عنده كبت وهذا ضار. وإذا أبيح من غير زواج فهذا ممنوع في الإسلام لننظر إلى الإسلام، كيف حل هذه المشكلة: وسنجد أنّه قد حلّها بثلاثة طرق:

**الطريق الأول**: الصّوم، فالصّوم يقلّل وطأة الشّهوة ويضعف دافعَها، وقد يزول هذا الدافع مدّة الصّوم، وبذلك لا تبقى هناك مشكلة لأنّ المشكلة تحدث عندما يرغب الإنسان في الوصول إلى هدف ويحول بينه عائقٌ يعجز عن إزالته، وبذلك لا يحدث عنده أيُّ صراع نفسي. هذا من جهةٍ ومن جهةٍ أخرى، فالصّوم له إيحاء ذاتي لأنّ الصّائم يشعر بأنّه يتعبَّدُ الله ويرضي خالقَهُ وأنّه سَيُدَبِّرُ لهُ ما يُحقّق رغبتَهُ، وأنّه إن لم يتزوج في هذه الحياة فإنّه سيتمتع في الآخرة، بما هو خير وأبقى، وما دام الإنسان يشعر بأنّ مشكلته ستحل إنْ عاجلاً أو آجلاً فإنّها لا تُسبّب أمراضاً نفسيّةً، وبذلك فالصّوم يحل المشكلة من النّاحية العضوية والنّفسيّة معاً.

**والطريق الثاني**: الاستعفاف والاستعلاء، وهو كف النفس عن ارتكاب جريمة الزنا تسامياً بالنفس واستعلاءً على الرّغبات الشّهويّة الدنيئة وحباً للفضيلة، ويقول

(١) سورة النور، الآية: ٣٣.

علماء النفس إن ترك إشباع الدافع الجنسي خوفاً من السلطة يؤدي إلى الكبت، أمّا إذا كان بسبب الاستعلاء أي عن طريق النّظرة إليه على أنّه أمر قبيح لا يليق به وأنّه ضار بالصّحة، فهذا لا يضرُّ لأنه في هذه الحالة لم تبق مشكلة نفسية.

وقد تكلم علماء النّفس عن أثر العفة في حياة الإنسان، إذا وُجّهتْ تلك الطاقة الشهوية إلى الخير كان لها نتائج عظيمة في ميدان العلم والآداب والتّقدم في العلوم، ويقول - وليم مكدوجل - أيضاً: «وبدلاً من أن ينغمس الإنسان في نزعاتهِ الجنسيّة مع أيّة امرأةٍ تخطر لخياله الهائم فقد يمكن أن يصبحَ محبًّا وفياً باذلاً الطاقة التي تنبع من قوة مشاعره في إنتاج أعمال فنية رائعة... وقد يبدأ في أن يكوّن لنفسه مكانة في المجتمع أو يقوم بإنجاز عمل عظيم أو ينال من المجتمع شرفاً له واعترافاً... وقد يضاعف جهوده في فنون الرياضة أو في عالم التجارة أو الفنّ أو في دنيا العلوم، وفي كل أوجه نشاطه هذه تكون الطاقة التي تدعم عملياته العقلية وتضاعف من حيويّته هي نشاط نزعته الجنسية وعوضاً عن أن يجد الدافع الجنسي منفذاً عملياً مباشراً له تنتشر طاقته وتنصرف في عدة مسالك للنشاط الأكثر سمواً».

ولهذا كلّه فقد رفع الإسلام شأن العفة والاستعلاء، فقد وصفَ الزّنا بالفاحشة فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1]. واستقبح شأن الزنا أو عملية الزنا ونفَّرَ النفس الإنسانية منها وحثّها على الاستعلاء على الغريزة، وهذا الحل من النّاحية النفسية أفضل، لكن مع ذلك قد يعترض هنا بأن العفة تقلل من النشاط الجنسي، نقول: وليس في ذلك ضرر إذْ إنّه سيعود إلى وضعه الطبيعي بعد الزّواج.

**الطريق الثالث**: أمرَ الإسلام أولياء الأمور بتيسير تزويج بناتهم وأبنائهم إن كانوا فقراء لا يستطيعون الإنفاق فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2]. وقال

(١) سورة النساء، الآية: ٢٢.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٢.

الرسول ﷺ: «**وإذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه**»(١).

وقال ﷺ: «**ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونُهُمْ: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداءَ، والنّاكح الذي يريد العفاف**»(٢).

وقال الفقهاء: إن لم يعن أولياء الأمور على تزويج هؤلاء العاجزين عن المال فعلى بيت المال أن ينفق عليهم ويزوجهم، لأنّ الزّواج كما قلنا ضرورة فردية واجتماعية فلا ينبغي إهماله.

وعلى المجتمع أن يساعد الفقراء سواء بالبذل أو إيجاد عمل لهم حتى لا يبقوا بدون الزّواج ويكون ذلك سبباً لانتشار الزنا وبالتالي لانتشار الأمراض(٣).

فالزواج كما هو ضرورة اجتماعية، فهو كذلك من واجبات المجتمع نحو أفراده.

**الطريق الرابع**: أن يبذل الفرد كل إمكانياته وطاقته للحصول على مكسب حلال يستطيع به أن يقوم بنفقات الزّواج، ومن جد وجد، ولو تأخر في ذلك. وعلى المرء أن يعمل لينفق لا ليأخذ. فقال الرسول ﷺ: «**اليد العُلْيَا خيرٌ من اليَدِ السُّفْلَى**» وقال أيضاً: «**إن الله يحب لكم معالي الأمور وأشرافها ويكره سفافها**»(٤).

ثم إنّ الحرمان من الحياة الزوجية وشعور المرء بأن الاتصال غير الشرعي حرام يدفعانه إلى الجد والمثابرة لإعداد حياة كريمة يستطيع فيها تحقيق متعة الحياة الزّوجية الشّريفة.

وهكذا نجد أن الإسلام لا يجد حلاً للمشكلات بل يجد ويقدم عدّة حلول ليأخذ كل فرد بما يراه مناسباً ولائقاً به حسب ظروفه وإمكانياته. والله ولي التّوفيق.

---

(١) صحيح الترمذي، ج٣، ص: ٣٠٥.
(٢) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول - كتاب (النكاح) ج٢، ص: ٢٧٩.
(٣) رياض الصالحين - باب (الكرم والجود)، ٢٤٥.
(٤) الجامع الصغير ج١، ص: ٧٥.

## البحث الخامس:

# بناء البيت السّعيد(١)

إنّ السعادة لا تأتي بمجرّد الرّغبة فيها، ولا تأتي بمجرّد اعتناق مبادئها، بل لا بدّ من العمل الجاد والالتزام الدائم المستمر بمبادئها، والسير في طريقها، وتحقيق شروطها، وقبل بيان ذلك كله ينبغي تحديد مفهوم السعادة أوّلاً.

### ١ - مفهوم السعادة:

إذا نظرنا مفهوم السعادة لدى الدارسين وجدناهم قد اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً، ويطول بنا المقام لو ذكرنا ذلك كله، ولهذا أرى الاقتصار هنا على المفهوم الذي خرجت به نتيجة لدراستي الخاصة. وهذا المفهوم هو «ذلك الشعور المستمر بالغبطة والطمأنينة والأريحية والبهجة». وهذا الشعور لا يأتي إلا نتيجة الإحساس الدائم بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير.

ليستطيع الإنسان أن يشعر بخيرية ذاته، أو ليأتيه هذا الشعور لا بدّ من تحقيق بعض الشّروط.

### شروط تحقيق السعادة:

**الشرط الأول**: أن تكون نيات الإنسان وغاياته جميعها خيِّرة في حياته كلها: لأن من ينوي سوءاً أو أراد شراً فلا يمكن أن يأتيه الإحساس بأنه إنسان خيّر. ثم إن هذه النيات السّيِّئة لا تؤثر على تعكير صفو حياته النفسية الباطنية فحسب بل تؤثر على حياته الحسّية الظّاهرة أيضاً، وهذا ما يقرره أيضاً العلم الحديث. ويقول العلماء هنا: «مثلاً ولكي نكفل لذواتنا جهازاً عصبياً صحيحاً وجسماً مُعَافَى سليماً يجب أن نُرَوِّض عقولنا على الأفكار الصّالحة البريئة من الآثام لأن الأفكار الشريرة الدنسة تضعف العقل وتفسده وتجره إلى الجنون».

---

(١) بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام: للدكتور مقداد يالجن ط دار المريخ الرياض، ص: ١١ - ٢٤.

**الشّرط الثاني**: أن يكف عن جميع الشرور والرّذائل الأخلاقية: ذلك أنه إذا كان له مجرد إرادة الشر يكون له ذلك التّأثير فإنْ فعل الشّرور والرّذائل أدْهىٰ وأمر.

ولهذا نجد الحكماء وعلماء النّفس ينصحون دائماً بتجنب الإنسان جميع الشرور والرذائل إذا أراد أن يبعد نفسه عن الأمراض النفسية التي تترتب على عذاب الوجدان الذي يحس به الإنسان نتيجة ارتكابه الشّرور. فيقول أفلاطون مثلاً: «يكون الرجل تعيساً لأنّه يعمل الشّر». ويقول الدكتور عادل العوا عن عذاب الوجدان: «أمّا عذاب الوجدان فإنّه يبدو أول ما يبدو وكأنّه أخرس طفيف... ولكن هذا الألم المعنوي الأخلاقي ألم عميق في الواقع فهو يستولي على النفس كلها بصورة تدريجية، ويتصف بعدئذ بأنّه لا يزول ولا يهدأ ولا يمحى أبداً... ولذا فإنّه يشبه لظى جحيم لا يبرد... وربما يصحبه انحطاط عضوي يشتد ويقوى حتى يفسد الجسم ويتلف أعضاءه وينذر بأمراض خطيرة تؤدي إلى الموت».

وقال أيضاً: «وأمّا عذاب الوجدان أو وَخز الضّمير وتأنيبه فهو الذكرى التي تعض القلب المجرم ولا تفارقه ليلَ نهار». ولهذا أيضاً وردَ في الأثر هذا القول: «البِرُّ لا يبلى والذنب لا يُنسى، والدّيّانُ لا يموتُ، فكن كما شئتَ فكما تدينُ تُدان» وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جعل الهمُومَ همًّا واحداً؛ همَّ المعادِ، كفاهُ الله سائرَ هُمُومِهِ، ومَنْ تشعبتْ به الهُمُومُ مِنْ أحوالِ الدّنيا لم يُبالِ الله في أيّ أوْدِيَتِها هَلَكَ**»[١].

**الشّرط الثالث**: فعل الخيرات بالنّيّات الخيّرة: لأن الشّعور بخيريّة الذات لا يأتي إلا إذا فعل الإنسان الخيرات أولاً، وأن يكون فعله له بالنّيّات الخيرة، إذ لا يمكن أن يقول له ضميره في الدّاخل بأنك خيّر إذا فعل الخيرات بالنّيّات السيئة أو للمراءاة، أو ليصل إلى غاية دنيوية. فإن هذا العمل أو ذاك يدخل في المعاملة

(١) صحيح الجامع الصغير.

التجارية ولا يدخل في المعاملة الأخلاقية، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**إنّما الأعمالُ بالنّيّات، وإنّما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[(١)]. ثم إنّ الله يوفق الذين يعملون الصّالحات بالنّيّات الصّالحة في إقامة الحياة الطّيّبة وتيسير أمورهم فيها. ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[(٢)].

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾[(٣)] ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾[(٤)].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(٥)].

أمّا فيما يتعلّق بتحقيق الإحساس بخيرية الحياة فيتحقق بشرطين أساسيين

**أولهما:**

تحقيق الإحساس بخيرية الذّات وبأصول منشئها؛ لأنّ من لم يشعر بخيريّة ذاته لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة على أنّها خير، لأن الإنسان ينظر بمنظار نفسه إلى الحياة وإنّ داخلَ الإنسان ينعكس على ظاهره.

**ثانيهما**: تحقيق الصّحة الكاملة وهي الصّحة الجسمية والعقلية والنّفسية والروحية. وأهمّ مبادىء الصّحة الجسمية هي:

١ - تناول الأغذية اللازمة بقدر الضّرورة دون إفراط أو تفريط لأنّ تناولها أكثر من الحاجة ضارّ، كما أنّ تناولها أقلَّ من الحاجة ضارٌّ أيضاً، وتنتج أمراضٌ خاصّةٌ لكلِّ حالةٍ من حالات التّطرف، وهذا ما يُقرّره الأطباء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[(٦)].

---

(١) حديث صحيح.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٨٨، ٨٩.
(٤) سورة الليل، الآيات: ٥ - ١٠.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٩.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

obeikandl.com

٢ - الابتعاد عن المرضى المصابين بالأمراض المعدية وتجنب الأماكن الموبوءة. وهذا من أهم المبادىء الصّحية في الطّبّ. ولهذا أيضاً أمر الإسلام بذلك فقال الرسول ﷺ: «**لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مصحٍّ**»(١). وقال ﷺ: «**إذا سمعتُم بالطّاعون بأرضٍ فلا تَدْخُلُوها**»(٢). وقال ﷺ: «**فِرَّ مِنَ المجذومِ فِرَارَكَ مِنَ الأسد**»(٣).

٣ - الاعتدال في الأعمال، لأنّ الإفراط في العمل يُؤدّي إلى الإرهاق، والإرهاق يُؤدّي إلى أمراض جسميّة ونفسيّة وعصبية وعقلية. كما يقرر ذلك الأطباء، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**عليكم برخصة الله التي رخّصَ لكم**»(٤). وقال أيضاً: «**أيُّها النّاسُ عليكم بالقصد، عليكم بالقصد**»(٥). وكما يضرّ الإرهاق، يضرّ الكسل أو عدم العمل أيضاً، وهناك أمراضٌ تنتج عن الكسل يُحدّدها الأطباء.

ولهذا كان الرّسول ﷺ يستعيذ من الكسل قائلاً: «**اللّهم إنّي أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل**»(٦). وكان يقول: «**اللّهمّ بارِكْ لأمتي في بكُورها**»(٧)، وذلك لتغدو إلى كسب رزقها في جدٍّ ونشاط، وهذا يكون في البكور في أوّل النّهار.

٤ - مراعاة النّظافة والطّهارة، لأنّ معظم الأمراض تنشأ عن القذارة، كما يقرر ذلك الأطباء، ونحن نعلم مدى اهتمام الإسلام بالنّظافة لدرجة أنّه جعلها شطر الإيمان. فقال الرسول ﷺ: «**الطّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ**» وقال ﷺ: «**الغُسْل يوم الجمعة واجبٌ على كلِّ مُسْلم، والسّواك، ويمسُّ من الطّيب ما قدر عليه، ولو من طيبِ زوجته**»(٨).

٥ - تجنّب الأسباب النّفسية المرضية التي تُؤدي إلى الأمراض العضوية، ذلك أنّ هناك كثيراً من الأمراض الجسمية سببها الحالات النّفسية المرضية، منها عذاب الوجدان الذي ذكرنا آثاره على الأمراض الجسمية.

---

(١-٨) حديث صحيح.

أمّا الصّحة العقلية فتتحقّق بإبعاد العقل عمّا يسبب له أمراضاً مختلفة.

وأهم تلك الأسباب بيُولُوجيّة، وأخرى سيكُولُوجيّة. أمّا الأسباب البيُولُوجيّة أو العضوية فكثيرة، من هذه الأسباب جميع أنواع المسكرات والمخدّرات. وقد بيّن المؤتمر الدّولي المنعقد في بلجيكا الأمراض التي تُسبّبها المسكرات والمخدرات وكيف أنّها لا تُؤثّر على صحة المدمنين فحسب، بل تؤثر على عقول ذُرّياتهم أيضاً.

ولذلك حرَّمَ الإسلامُ جميع أنواع المسكرات والمخدّرات، فقال الرسول ﷺ: «**كلُّ مسكرٍ خَمْرٌ، وكلُّ خمرٍ حَرامٌ**»(١). ومنها أيضاً بعضُ الأمراض مثل الزّهري الذي يؤدّي إلى الجنون إذا انتقلتْ جراثيمه إلى المخّ. ويؤدي إلى الشلل العام إذا انتقلت جراثيمه إلى النّخاع الشوكي. إن هذا المرض الخبيث يرجع ٩٨٪ من نسبة الإصابة به إلى انتشار الزّنا أو أعمال الفاحشة كما يُقرر ذلك الأطباء، ولذلك حرَّمَ الإسلامُ الزّنا فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾(٢). وأمّا الأسباب السيكولُوجيّة التي تُؤدّي إلى الأمراض العقلية فهي كثيرة أيضاً وأهمّها اختلال التوازن العاطفي الذي يُرجّح الدكتور «ألكسيس كارل» سببه إلى عدم تبني المرء لنظام اعتقادي أخلاقي سليم، أو لعدم وجود مثل هذا النظام في الحياة الاجتماعية ولذلك جاء الإسلام بنظام اعتقادي سليم. ومن أهم هذه الأسباب أيضاً تزعزع العقيدة أو فقدان الإيمان بالمبادىء الروحية الثابتة.

ويُؤيّد ذلك أيضاً الفيلسوف الألماني «ليبنتز» قائلاً: «ولإزالة القلق النّفسي والروحي أن يُؤمن المرءُ بالله عن طريق العقل، وأن يملأ نفسَهُ بسرورٍ عقلي لأن القلق ناتج عن الشّك، والشك وسيلة لتفتيت القلب». ولقد صوَّرَ الله تعالى خطورة تزعزع العقيدة بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(٣).

---

(١) حديث صحيح.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣١.

وأخيراً من أهم تلك الأسباب وجود تناقضات في حياة المرء الاجتماعية مثل التناقض بين مسلكه وبين عقيدته أو عدم استطاعة المرء أن يتخذ اتّجاهاً معيناً من بين تلك الاتجاهات المتناقضة. ولهذا ينصح علماء النّفس بتوحيد ذات الإنسان عن طريق توحيد وجهتها لتكوين شخصية قوية متماسكة.

يقول هنا الدكتور «ألكسيس كارل»: «إن الأحوال التي تساعد على تزايد الضعف العقلي والجنون الدوري تظهر على الأخص في البيئات الاجتماعية التي تكون فيها الحياة قلقة مضطربة وغير منظمة».

ويقول «ليبنتز»: «يتركب أسعد النّاس من مجموعة متناسقة من أوجه النشاط العقلي والخلقي».

والإسلام جاء بنظام اعتقادي أخلاقي للحياة الفردية والاجتماعية لو طبّقه النّاس أفراداً وجماعات في حياتهم الخاصة والعامة لما وجد مكاناً لمثل هذه الحالات المرضية. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾(١). ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾(٢).

وأمّا تحقيق الصّحة النّفسية الرّوحيّة فيتوقف على تحقيق الصّحة الأخلاقية والصحة العقلية التي بيّنّا أسبابها، ثم لا يدفع ذلك من تجنب الأسباب التي تُؤدي إلى الأمراض النّفسية والرّوحية. ففيما يتعلق بتحقيق الصّحة الرّوحية، فأهمّ الوسائل التي لا بدّ من مراعاتها هي ملازمة الحياة الروحية وفقاً للعقيدة التي تقوم عليها الحياة الروحية أو تنبع منها، لأن الحياة الروحية غذاء للروح أو حاجة روحية في طبيعة الإنسان، تماماً كما يصاب الجسم بخلل إذا حُرم من حاجاته الأساسيّة، هذه الحقيقة انتهيت إليها بعد دراسة خاصّة لطبيعة الإنسان من النّاحية السيكولُوجيّة والبيولُوجيّة. كما انتهى إليها كثير من الفلاسفة والعلماء.

ولهذا يرجع معظم علماء النّفس الأمراض الرّوحية والنّفسية إلى ترك النّاس الحياة الرّوحية وانغماسهم في الحياة المادّية وارتكابهم الرّذائل والجرائم.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٢. (٢) سورة الزمر، الآية: ٥٤.

ولهذا قرر الإسلام الحياة الرّوحية وجعلها واجباً على كل فرد يجب مراعاتها كما يجب مراعاة الحياة المادية. ويبيّن أنّه لا يمكن أن يجد الإنسان الطمأنينة والراحة النّفسية بدون ممارسة هذه الحياة، فقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(١) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣) ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾(٤).

ويقرر ذلك أيضاً «وليم جيمس» عندما يقول: «إنّ الإيمانَ بالله هو الذي يجعلُ للحياة قيمةً، وهو الذي يُمكّننا من أن نستخرج من الحياة كل ما فيها من لذة وسعادة. ومن أهم وسائل الشقاء النّفسي أيضاً وجود تناقضات في الحياة الفردية والاجتماعية مثل التّناقض بين مسلك المرء وعقيدته أو عدم تبني المرء اتجاهاً معيّناً من بين الاتجاهات المتعارضة والمتناقضة».

هنا نجد الفيلسوف الألماني «ليبنتز» يُقرّر ذلك عندما يقول: «يتركب أسعد النّاس من مجموعة متناسقة من أوجه النّشاط العقلي والخُلُقي».

ولهذا كله نجد الإسلامَ جاء بنظام اعتقادي وأخلاقي ودعا إلى الالتزام بهما نظرياً وعملياً فقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾(٦).

وأخيراً إن من أهمّ الأمور التي تُشْقِي النّفس والتي يجب تجنبها لتحقيق السعادة النّفسية هو التّشاؤم وتوجس الشر، ذلك أن روح التّشاؤم إذا كان موجوداً في الإنسان أو كان معتنقاً الاتجاه التّشاؤمي المعروف لدى بعض رجال الفكر - مثل الفيلسوف «شوبنهور» الذي كان يرى أنّ الحياةَ وَهْمٌ أليم، والتّشاؤم صبغةُ الوجود وجوهر الحياة. كما كان يرى أن الألم يستغرق كل شيء وأن

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ١٣.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٥٤.
(٥) سورة لقمان، الآية: ٢٢.
(٦) سورة طه، الآية: ١٢٣.

الإرادة الكونيّة عمياء ولا خلاص إلا بالتّغلّب على هذه الإرادة - إذا كان روح التّشاؤم موجوداً في الإنسان بهذه الصّورة فإنّه لا يمكن أن يشعر بالطمأنينة والبهجة في هذه الحياة. ثم إنّ التّشاؤم لا يعوق الشعور بالسعادة فحسب بل إنّه يضر الصّحة أيضاً ويسبب أمراضاً نفسيّة وعصبية، كما يُقرّر ذلك علماء النّفس فيقول مثلاً الدكتور «عزيز فريد»: «أنّه يتحمل بفعل اتجاهه التّشاؤمي هذا متاعب هي أشد وقعاً على نفسه وأعصابه من وقع الكوارث أو الملمات أو المآسي التي يتوقع حدوثها، ويستهلك اتجاهه التّشاؤمي من الطّاقات عبثاً لأنه لا يستطيع أن يتحكم في اتجاهه الخاطىء بأعمال قوة الإرادة، ذلك لأن بواعث التشاؤم هي أبعد وأعمق من أن تنالها الإرادة الواعية».

ولهذا نجد الإسلام يدعو إلى التفاؤل على أساس أن الله خلق الكون بعناية وخلق الإنسان برعاية وخلق الأشياء لصالح الإنسان لا لضده ولا لشقاوته بل لسعادته. ثم لم يوجد الكون عبثاً أو صدفة أو أن كل شيء جاء ضد آخر كما يرى البعض. ولهذا نجد الإسلام يُقرّر ذلك، وقد جاءت آياتٌ كثيرة في القرآن تبيّن أنّ الله خلق كل شيء في الكون للإنسان وسخره له، فمن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[١].

ثم دعا الإسلام إلى الابتهاج بالجمال الذي خلقه الله في الكون وفي السماء.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[٢].

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[٣]. وكذلك الجمال الذي خلقه في النّباتات.

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٣٢ - ٣٤.
(٢) سورة قٓ، الآية: ٦.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٦.

obeikandl.com

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾(١). ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾(٢). كما خلق الله حيوانات في صورة جميلة انظروا إلى جمال تلك الطيور ذات الرّياش الملونة والحيوانات مختلفة الأشكال والألوان... ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾(٣) ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾(٤).

يقول هنا الفيلسوف الألماني «ليبنتز»: «وما من مرّةٍ ترى فيها أحد مصنوعات الله إلا وجدناها غاية في الكمال، ويجب أن نبدي إعجابنا بجماله ورقة صنعه». ويقول «جون روسكين» أستاذ الفنون الجميلة بجامعة أكسفورد: «الإنسان الذي يتأمّلُ الجمالَ في الطبيعة وفي الفن يجد أنه يتحد بالتعاطف مع الجمال الذي صنعه الله، والجمال الذي صنعه الفنّان، وهذا الاتحاد يسبغ على نفس الإنسان حُلّة من السّمو الخلقي فيشعر المرء بإتقان نبيل وسمو رفيع ويعيش في سعادةٍ مطلقةً سعادة الجمال».

ثم إنّ الله لم يكتف بتجميل ما خلقه وما صنعه حتى أحسنَ خَلْقَ الإنسان نفسه. فقال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾(٥) ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾(٦).

ثم إنّ الإسلام دعا بعد ذلك إلى أن يجمل الإنسان نفسه ويأخذ زينته. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾(٧) ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾(٨).

كما دعا إلى النّظافة والتّعطر والابتسام عند مقابلة النّاس، وهذا من آداب الإيمان، وأخلاق الإسلام.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٣) سورة النحل، الآيتان: ٥، ٦.
(٤) سورة النحل، الآية: ٨.
(٥) سورة التين، الآية: ٤.
(٦) سورة غافر، الآية: ٦٤.
(٧) سورة الأعراف، الآية: ٣١.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

وجعل الرسول ﷺ التّطيّب والتّعطر سنّة خاصّة في أيام الجمعة، بل أكثر من هذا دعا الإسلام إلى أنْ يكون الإنسان جميلاً في مقابلته للنّاس. فقال الرسول ﷺ: «**وتبسّمُكَ في وجهِ أخيكَ لكَ صدقةٌ**»[١]، وفي مناقشته ومجادلته معهم: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢] ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٣].

وكما دعا الإسلام إلى التبشير لا التنفير، فقال الرسول ﷺ: «**بَشِّرُوا ولا تُنفِّرُوا**»[٤]. وكان يُعجبه الفألُ الحسن ويكره الطيرة، ولهذا نفى الغُولَ والهَامّةَ، وما إلى ذلك من الأشياء التي كان العرب يتشاءمون منها وذلك كله لكي لا يرى الإنسان من أخيه الإنسان إلّا خيراً وجميلاً ولا يشم منه إلا ريحاً طيّباً ولا يسمع إلّا كلاماً حسناً مبشّراً حتى يكون الإنسان متفائلاً ومبتهجاً في نظرته إلى الطبيعة وإلى الإنسان وإلى حياة الناس جميعاً.

وأخيراً فإن الإسلام بعد ذلك دعا إلى حُسْن الظّنّ، حُسْنِ الظّنِّ بالنّاسِ وبالله، لأنّ سُوء الظّنّ يُثير في نفس الإنسان القلقَ والتّوجس بالشّرّ وانتظار الإساءة من الغَير باستمرار وما دام الأمر كذلك فلا يهدأ له البال ولا يطمئنّ له القلب. ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾[٦].

بعد هذا كله هناك وسيلتان مهمّتان لتحقيق السعادة لا بدّ من مراعاتهما:

**أوّلهما**: تنظيم الإنسان علاقته بالمجتمع بحيث لا يعاشر ولا يُصادق الأشرار، بل يجب الابتعاد عنهم، لأنّ الشرير لا يأتي منه إلاّ الشّر، بل أكثر من هذا فإنّه يجعل الإنسان يكره النّاس ويتشاءم منهم، ومقابل ذلك يجب أن يُعاشر ويُصادق الأخيار؛ لأنّ الخيّر لا يأتي منه إلاّ الخير، بل الخير يفيض منه كما

(١) حديث صحيح.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٤) حديث صحيح.
(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٦) سورة النجم، الآية: ٣٢.

obeikandl.com

يفيض النور من السّراج. ولهذا دعا الرّسُول إلى معاشرة الأخيار والصّالحين وترك معاشرة الأشرار فقال ﷺ: «**مَثَلُ الجليسِ الصّالح، وجليسِ السّوء كحاملِ المسك ونافخ الكير، فحاملُ المِسْك إمّا أن يُحذيَكَ، وإمّا أنْ تبتاعَ منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبةً، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد منه ريحاً خبيثةً**»[1].

**ثانيهما: قوة الإرادة:**

إنّ امتلاك الإنسان قوّةَ الإرادة بحيث يستطيعُ تطبيقَ كلِّ المبادىء السّابقة بدقةٍ وانتظامٍ، ويستطيع بها السّير في طريق السّعادة على الرّغم من وجود بعض المعوّقات والمشكلات التي تعترضه من حينٍ إلى آخر، فهي من مِلاكِ الأمور وعزائمها.

لكن كيف يستطيع الإنسان أن يمتلك قوّة الإرادة إن لم يكن مالكها؟ الحقيقة أنّ هذه مشكلة يجب السّعي إلى حلّها، ليستطيع المؤمن أن يملك القدرة على التّخلّص من كلِّ ضعفٍ يُوهنه عن القيام بالواجب نحو ربّه ونحو عباده.

## البحث السادس:

## تحصين الشّريعة للأسرة بحمايتها للزّوجة من عَوادي الفِتن

مؤدى هذا: تحريم التّفكير في الفاتنات من النّساء، ومنع الاختيار من مجاله، بل منع اختراق سياجهِ الحصين.

ألم ترَ إلى التّعبير القرآني البليغ كيف وصفهنّ بالمحصنات دون الاكتفاء بوصف المتزوجات؟!. ليس هذا فحسب.

بل لقد بلغ احتياط الشّريعة في هذا الأمر أمداً بعيداً، يدل على مدى

(١) حديث صحيح.

obeikandl.com

إعزازها للأسرة، وحفاظها على ما ينبغي لها من أخلاق وقيم، وحمايتها ممّا يتهدد مسيرها ومصيرها.

فكان المبدأ العام هو تقرير الحرمة الكاملة للمسلم في دمه وعرضه وماله. **«كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دمُهُ، ومالُهُ، وعرضُهُ»**(١).

وفي بعض المروي عنه ﷺ ألفينا التعبير النبوي مسايراً للتعبير القرآني البليغ فيما ألمحنا إليه، فهو ﷺ يقول في حجة الوداع: **«المؤمنُ حرامٌ على المؤمن، كحرمةِ هذا اليوم: لحمُهُ عليه حرامٌ أن يأكله أو يغتابه بالغيب، وعرضه عليه حرام أن يخرقه...»**(٢).

وكان اعتراف الإسلام بالمرء، وقبوله في زمرة المؤمنين، ودلالة سلوكه على كمال إيمانه: أن يُحبّ لأخيه ما يُحب لنفسه ويكره له ما يكره لها.

وقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: **«لا يُؤمن أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحب لنفسِهِ»**(٣).

ومَنْ - غير الديّوث - يُحبُّ أن يتلصص العابثون بالمصائر والقيم إلى حصنه المنيع، وحرمه الآمن، حتى يفعل هو ذلك بغيره؟

## «مَنْ خَبَّبَ امرأةً على زوجها»:

لقد تبرّأ النّبيّ ﷺ باسم المؤمنين جميعاً ممن يُفسد امرأةً على زوجها، مهما تكن غايته من وراء هذا الإفساد زواجاً أو غير زواج.

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب: باب (تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره) ٤/ ١٩٨٦ من حديث أبي هريرة.

(٢) أورده ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم ص: ٢٤٣. وأورده الهيثمي عن الطبراني من طريقين ضعيفين ٣/ ٢٦٨، ٢٧٢، غير أنه أورد شواهد عديدة وصحيحة لحرمة الدماء والأموال والأغراض.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان: باب (من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ١/ ٤٨ - ٤٩. ومسلم في كتاب الإيمان: باب (الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه) ١/ ٦٧ - ٦٨.

obeikandi.com

وهذا أبو هريرة رضي الله عنه يروي عن النّبيّ ﷺ قوله: **«ليس منّا مَنْ خَبَّبَ امرأةً على زوجها، أو عبداً على سيده»**(١).

وقد «تركب هذه المرأةُ رأسَها»، فتسأل زوجَها طلاقها، لتمضي في طريق الغواية والمُجُون، وتلهو وتعبث باسم القانون؟!. بيد أنّها في الوقت ذاته تكون قد أتمت للشيطان صفقتَهُ، وحقّقتْ له غايتَهُ وأخرجت نفسها من جنّة الزّوجية الوادعة الكريمة المتسامية، فتحق عليها اللّعنةُ والخزي في الدنيا، ولا تجدُ ريحَ الجنّةِ في الآخرةِ.

**«مَنْ تسألُ زَوْجَها طلاقَها»:**

وهذا هو ثوبان رضي الله عنه يروي عن النّبيّ ﷺ قوله: **«أيُّما امرأةٍ سألت زوجَها طلاقها من غير بأس فحرامٌ عليها رائحةَ الجنّة»**(٢).

وما تقرُّ عينُ إبليس بشيءٍ كهذا.

وقد روى جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إنّ إبليسَ يضعُ عرشَهُ على الماء، ثم يبعث سرايَاهُ، فأدْناهم منه أعظمهم فتنةً، يجيء أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا فيقول: ما صنعتَ شيئاً، ثم يجيء أحدُهم فيقولُ: ما تركتُهُ حتّى فرّقتُ بينَهُ وبينَ امرأتِهِ، فيُدنيهِ ويقولُ: نَعَمَ أنت»**(٣).

قال الأعمش: أُراه قال: فيلتزمُهُ: أي يضمُّه إلى نفسه ويُعانقه.

**«مَنْ يسرقُ امرأةً من زوجها»:**

إنّ مَنْ تتبَّعَ عورات المسلمين تتبَّعَ الله عورتَهُ هتكاً وفضحاً. ومن تسور بعينه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافين وأحكامهم: باب: (تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس) ٤/ ٢١٦٧. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٩٣ - ٩٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٩٦. وصححه على شرط البخاري وأقره الذهبي.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن ٣/ ٤٩٣، وأحمد في المسند في مواطن كثيرة منها ١٢/ ٢٣٩ - ٣٤١، ١٤/ ١١٧، ١٥/ ٣٢٦ (المعارف) وقال المحقق إنّ إسناده صحيح، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٠٠، وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

على النّاسِ وأعراضِهِم، وتلصص بناظره استراقاً لأسرارهم، وإشباعاً لفضوله ومجونه على حسابهم فإن الشّريعة تهدر حرمته وكرامته، وتسقط عن المنظورين ديته لو صَوَّبُوا إليه شيئاً ففقأُوا عينَهُ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنِ اطّلَعَ في بيتِ قومٍ بغير إذنِهِم فقَدْ جُعِلَ لهم أنْ يفقأوا عينَهُ**». رواه مسلم وأورد له متابعات عديدة منها: «**لو أنّ رجلاً اطّلع عليك بغير إذنٍ فقَذَفْتَهُ بحصاةٍ ففقأتَ عينَه ما كان عليك من جُنَاحٍ**»(١).

فكيف بمن لا يكتفي بلسانه ولا بطَرْفِهِ، بل يُسارق رجلاً زوجَهُ ابتغاءَ الزّواج بها، أو العبث معها، دونَ ما رادعٍ من دينٍ أو ضمير.

### «حُرْمَةُ المُحْصَنة»؛ وهي «المتزوّجة»:

إنّ المحصنة من النّساء لها ولزوجها، ولبنيها وبيتها، حصانةً ينبغي أن تُراعىٰ وحرمة تستوجب أن تُصان!.

ولذلك حرمتِ الشّريعةُ الزّواجَ بها، وحرصتْ على سدِّ جميع الذّرائع المغرية به، واحتاطت لذلك بكل ما أشرنا إليه!.

### «حُرْمَةُ المُحْصَن»؛ وهو «المتزوّج»:

وإذا كان للمحصنة من النساء تلك الحرمة، فإنّ للمحصَنِ من الرجال كذلك حَرَماً آمِناً يحرمُ على المرأةِ أن تقتحمَ سياجَهُ، أو تخترق نطاقه.

### «لا تسألُ امرأةٌ طلاقَ أختها»:

وماذا يكون من المرأة التي تعابث زوجاً؟.

أتعبث معه فحسب أم تتزوّجه مع ذلك؟.

ثم ماذا؟ أتضيفُ عليه أعباءً جديدةً، أم تُسوِّل له طلاقَ امرأتِهِ تلك؟ وهو ما سوف تسعى إليه جهدها.

لقد نهى النّبيّ ﷺ عن هذا التّدبير الآثم، وأبان أنّ ما يختاره الله عز وجل

---

(١) ١٤٠/١٣٦ - ١٣٨ من النووي ورواه أحمد بإسناد صحيح ١٤/ ٤٤ (المعارف).

للمرء خير ممّا يختاره المرء لنفسه، أو يسعى إليه بجهده، وسط ظلام المكر، ودروب الخيانة؟ والعياذ بالله.

وكأنما تستفرغ المرأةُ حينئذٍ ما في إناء أختِها، أو ما بينَها وبينَ زوجها من الودّ والصفاء، والسّكينة والرّحمة، لتضعه في إنائِها، أو لتستأثر به دونها.

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ﵁ أنّ النّبيّ ﷺ «نهى أنْ يبيعَ حاضرٌ لبادٍ، أو يتناجَشُوا، أو يخطب الرّجلُ على خِطْبةِ أخيهِ، أو يبيعَ على بيعِ أخيهِ، ولا تسألُ المرأةُ طلاقَ أختِها لتكتفىءَ ما في صَحْفَتِها، أو إنائها، وَلْتَنْكِحْ، فإنّما رزقُها على الله».

**«لا تصفُ امرأةٌ أختَها لزوجِها»:**

وكما حرمتِ الشّريعةُ أن تُسَبّبَ المرأة في طلاق أختها بطريق مباشر، حرمت أن تتوسل إلى ذلك بطريق غير مباشر.

إن المخاطبة المتداخلة بين المرأة والمرأة، والتي تفضي بكل منهما إلى أن ترى مفاتن الأخرى، وتكشف عن محاسنها، وتنعتها لزوجها كأنّما ينظرُ إليها، لها أثرها البعيد في إشعال عواطف الرّجل نحوها، وإشغال فكره بها، وأن عسى أنْ تكون تلك المرأة زوجاً أو خليلةً، وأن يبحث الرّجل عن وسيلة للعَبَثِ معها، أو الزواج بها، ولهذا حرّم الشرع وَصْفَ المرأة للرجل دون سبب شرعي.

فأي طائف يطوفُ بالأسرتين حينئذٍ؟

وفيمَ تُسبّب تلك التي تنعتُ أختَها لزوجها؟.

ولذلك سدَّتِ الشّريعةُ هذه النّافذة، التي قد تسدد منها سهام الأهواء والفتن نحو المرأة المُحْصَنةُ.

وفي هذا يروي الترمذي عن عبد اللّه بن مسعود ﵁ أن النّبيّ ﷺ قال: «**لا تُباشرُ المرأةُ المرأةَ حتّى تصفَها لزوجها كأنّه ينظرُ إليها**»[١].

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وروى نحو معناه عن أبي سعيد، ١٠٩/٥، وأحمد في=

## البحث السابع:

# تحذير الشّريعة للزوجين من عَواقب الخطيئة الفاحشة

ولم تألُ الشّريعةُ جُهداً في توكيد حُرْمة الأُسرة، وتوسيع نطاق السّياج الخُلُقي حولَها، وتوفير المناخ النّفسي الملائم لها، والذي تنمو فيه براعم التّرابط والتآزر، وعوامل التّكيّف والتّوافق بين الزوجين، حيث تُفَرَّغُ الأسرةُ لرسالتَها المنوطةَ بها.

ولم تكتف بتحريم المُحْصَناتِ مِنَ النّساء، ولا بالنّهي عن الوسائل المفضية إلى الزّواج بهنّ، أو التعابث معهنّ، وإنّما تعدّتْ هذا وذاك إلى أمرٍ آخر.. إلى تقويم الإثم ذاته من هؤلاء المحصنات أنفسهِنّ.

إنّ الزّنا جريمةٌ منكرةٌ في الإسلام، ذاتُ عقوبةٍ محدودة، قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

بيد أنّها ممّن أُحصن أفظعُ جُرْماً، وأنكرُ إثماً، وأنكى أثاماً، إنّها انتهاك لحرمة مسلم، وهدم لكيان أسرةٍ، ونبذٌ لقيم مجتمع، ونقض لميثاقٍ غليظ، ومن هنا اختلفَ تقويمُ الإثم، وتغيّرَ تقديرُ العقوبة، فارتقى إلى الأشدّ الأشدّ!.

وقد روى عبد الله بن مسعود عن النّبيّ ﷺ قوله: «**لا يحلُّ دَمُ امرىءٍ مسلمٍ يشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا الله، وأنّي رسولُ الله إلّا بإحْدَى ثلاثٍ: الثّيّبُ الزّاني، والنّفْسُ بالنّفس، والتّاركُ لدينهِ، المفارقُ للجماعةِ**»[2] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ أيُّ الذّنبِ أعظمُ عندَ الله؟ قال: «**أنْ**

= المسند ٥/٢١٦، ٦/١٠٢، ١٠٩، ١٨٣، المعارف وقد صحح محققه إسناده. ورواه البخاري ٩/٢٧٧، ٢٧٨.

(١) سورة النور، الآية: ٢.

(٢) أورده المنذري عن البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي، ٣/١٩٠، ورواه أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن مسعود كذلك ج ١/٣٧، ٣٨.

**تجعلَ لله نِدًّا وهو خلقَكَ** » قلتُ: إنّ ذاك لعظِيمٌ، ثم أيُّ؟ قال: «**أن تقتلَ ولدَكَ مخافةَ أنْ يَطْعَمَ معَكَ** » قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: «**أنْ تُزاني حليلةَ جارِكَ**»[١] قال: وتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾[٢].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**حُرْمَةُ نساءِ المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتِهم، ما من رجلٍ من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين فيخونه فيهم إلّا وقف يومَ القيامة، فيأخذُ من حسناتِهِ ما شاء، حتى يرضى**» ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: «**ما ظنُّكم؟!**»[٣].

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**ما تقولُونَ في الزّنَا؟**» قالُوا: حرامٌ حرَّمَهُ الله ورسولُه، فهو حرامٌ إلى يوم القيامةِ، قال: فقال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: «**لأنْ يزني الرّجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جارهِ**»[٤].

وهكذا يختلف تقديرُ الشّريعة للخطيئة حين يتعلّق الأمر بالكيان الأُسَريّ، ثم تتضاعف الخطورة والعقوبة أكثر من ذلك حين يكون للهوى علاقة بحليلة جارٍ، إذ للجارِ من الحرمةِ فوقَ ما لهُ من مجرد الحصَانَةِ حينئذٍ.

أو حين يتعلّق الأمر بحليلة مجاهد في سبيل الله، وفي سبيل الحقّ، وفي سبيل الحرية، يخلف زوجَهُ وبنيهِ، وسط ذويه ومواطنيه، إذْ له حينئذٍ من الحرمةِ والكرامةِ ما لدينه من قداسةٍ، وما لوطنهِ من مكانةٍ.

---

(١) أورده المنذري في الترغيب والترهيب عن البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ٣/ ١٩٤، والآية من سورة الفرقان، الآيتان: ٦٨ - ٦٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٨، ٦٩.

(٣) أورده المنذري في الترغيب والترهيب عن مسلم وأبي داود والنسائي ج ٣/ ١٩٥.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/ ٨ ط الحلبي، والبخاري في الأدب المفرد ص ١٠٣ وابن كثير في التفسير ١/ ٤٩٤ وقال: تفرد به الإمام أحمد، وذكر له شاهداً من الصحيحين من حديث عبد اللّه بن مسعود: قلتُ: يا رسول الله. . . أيُّ الذّنبِ أعظم؟ الحديث. .

obeikandl.com

**«إنّ مَنْ خلفَ غازياً في أهله بخير فقد غزا»:**

ومَنْ خانَ غازياً في أهله فقد خانَ دينَهُ وأمانتَهُ، ووطنَهُ وأمّتَهُ، وكان أعدى على الوطن من أعدائه، وأجدر بالإفلاس من الحسنات يوم القيامة، جزاء من أفلس في الدنيا من الضمير والكرامة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(١).

وبعد تطوافنا هذا نحسب أنّه قد تبيّن لنا مدىٰ إعزاز الشّريعة للأسرة، وحرصها الحريص على تأكيد حرمتها، وتبيين قيمتها حتى تُؤديَ رسالتَها، وتُقوِّي روابطها، وتتحمّلَ مسؤوليتَها وتَبْلُغَ غايتها.

ولا نحسب أن ثمّة تشريعاً قبل الإسلام أو بعده أوْلَى الأسرةَ من التّكريمِ والحصانةِ والتّوقيرِ والرّعايةِ مثلما أوْلَى الإسلامُ، أو قريباً منه.

ثم لا نحسبُ كذلك أن يقتحم امرؤٌ تلك الحصُونَ، أو يقتربَ من هذا السّياج، لزواج أو لغير زواج، إلا أن يكون بعيداً عن الإيمان وواجبه، جريئاً على الله ومحارمه، مستهتراً بما للأسرة من قداسةٍ، وبما للجوار من حرمة، وبما للمجتمع من قيم. وأحرى بالمجتمع أن لا يتوانَى في أخذه بجريرته، وقفاً لتيار الفُسُوق، وصوناً للأسرة عمّا يشين، وعوناً لها على السير في طريقها البنّاء، نحو غاياتها النّبيلة، وأهدافها الرّشيدة.

تلك آيات الكتاب الحكيم، وما ظاهرها من نصوص السّنّة في مجال اختيار الزّوجة، وبيان من تحل ومن تحرم.

وقد كانت النّاحية التّشريعية وما يتصل بها من الجانب الأخلاقي هي السمة البادية، في الآيات والأحاديث الآنفة الذكر، وتمتاز السُّنَّةُ - بعدئذٍ - بإفاضة الحديث في نواحي أُخر، منها النفسي، ومنها الاجتماعي، لتقويم سلوك الإنسان على الصعيد الداخلي «الأسريّ» والخارجي «الاجتماعي».

(١) سورة قَ، الآية: ٣٧.

## البحث الثامن:

## ضوابط زواج المسلم بالمرأة الكتابية وأخطاره

نظرة عامّة لهذا الزّواج:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١). وقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾(٢).

فالزّواجُ يهدفُ إلى تحقيقِ السّكينةِ والمودّةِ والرّحمةِ، ثم إلى تحقيقِ التّوالدِ وتَتَابعِ التّناسلِ، فالحياةُ الزّوجيةُ ذاتُ أهدافٍ ساميةٍ ومقاصدَ راقيةٍ، تربطُ بين الرّجلِ والمرأةِ برباطِ الودِّ والرحمةِ، وبرباطِ «النّسْلِ» المخلوقِ الجديدِ، ليحملَ عنهما وظائِفَهُما؛ البنتُ عن أمِّها، والابنُ عن أبيهِ، وهكذا يُحقّقُ الزّواجُ سُنَنَ الله تعالى في استخلافِ الإنسانِ على هذه الأرضِ.

وهذا الزّواجُ النّاجحُ أن يكونَ الزوجان على منهجٍ صحيحٍ سليمٍ، واضحِ المعالمِ، ثابتِ المنطلقِ؛ في العقيدةِ والشّريعةِ والأخلاقِ والآدابِ والسُّلوكِ، فإذا اختلفَ منهجُ الزّوجين في ذلك هل يُحقّق الزّواجُ أهدافَهُ وغايتَهُ ومقاصدَهُ.

ليس في ضمان مخلوقٍ أنْ يتزوّج امرأةً ليستْ على دينهِ، ولا على شريعته، ولا على أخلاقه، ولا على آدابه، أن يضمن نشأةَ أبنائه وبناته على ما يُحبُّهُ الله تعالى ويرضاه.

إنّ هذه المعضلةَ الخطيرةَ تُواجه كلَّ متزوّجٍ بكتابيّةٍ «نصرانيةٍ أو يهوديةٍ» في هذا العصر الذي فقدَ فيه المسلمون خصائصَ الدّعوة إلى الإسلام، فنجدُ المسلمَ - في هذا الوقت - غير قادرٍ على حمل الدّعوة، بل نرى الكثيرَ - وعلى

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٢.

الأخص الذين يتزوّجون من الكتابيات في أوروبا وأمريكا - غيرَ ملتزم بإسلامه «عقيدةً وأخلاقاً وسلوكاً» فإذا اقترنَ بتلكَ المرأةِ الكتابية تجرّد عن آدابِ الإسلام وأحكامه، وأخذ بآداب «الغرب» وأحكامه، وعاداته وتقاليده. هذا هو واقعُ ٩٩٪ من الذين تزوّجوا من الأجنبيّات.

فإن كان هذا هو واقعُ الحال لأولئك الذين تزوّجوا بالكتابيات، فكيف يصحُّ القولُ بجوازهِ، استدلالاً بقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(١)، وهذه الآيةُ الكريمةُ ليستْ حُجّةً لهؤلاء بوجهٍ من الوجوه، فشرط زواج الكتابية أن تكون «مُحْصَنَةً» أي عفيفةً(٢)، فأيُّ امرأةٍ في أوروبا أو أمريكا تتّصفُ بالعفَافِ الذي يقصدُهُ الإسلام في إباحته من زواج الكتابية؟! والمعلُوم من قوانينهم إباحة ممارسة «الجنس» أي «الزّنا» إن كان برضا الطرفين، فإنْ كان هذا من أصل حضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ فكيف يُتصوّر أن تنشأ الفتاةُ الأوروبية أو الأمريكية على العَفَاف.

هذا من جانب «شرط العَفَاف»، أمّا من جانب ضمان سلامة عقيدة الأبناء والبنات في تلك البلاد، فهي لا تُدرّسُ العقيدةَ الإسلاميّةَ ولا التّربيةَ الإسلاميّة في المدارس الابتدائية ولا الإعدادية ولا الثانوية ولا الجامعية، بل المقرّر في مناهج تلك المراحل الدراسية النّيل من الإسلام، وتشويه صورته وتاريخه والافتراء عليه.

وهذه أيضاً من المعضلات الخطيرة التي تُواجه أبناء المسلمين من أبوين «مسلمين»، أمّا من كانت أمّه أوروبية أو أمريكية فهو يحمل الجنسيّة والتابعية الأوروبية أو الأمريكية، فلا يُقرُّ له بالإسلام في الإجراءات والأحوال المدنية، فقوانينُهُم تعتبرُ من يحمل جنسيّتَهم أو التّابعيةَ لهم «مسيحياً». والمسلمون الذين أعلنوا إسلامهم في تلك البلاد بحكم القانون «مسيحيون»، بل لا يقبلون تجنيس

(١) سورة المائدة، الآية: ٥.
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢/ ٢٠.

«المسلم» إلّا بعد أن يُقيم أكثر من خمس سنوات إقامةً متتابعة، وأن يتزوج من امرأةٍ من تلك البلاد، فأينَ الضمانُ لإسلامِ الأولاد في تلك البلاد.

فالمسلم الذي يُريد الزّواج بكتابيّة في بلادها يجب عليه أن يضع في اعتباره وحسابه هذه المعضلات الخطيرة التي لا حَلَّ لها، ولا ضمانَ للسّلامة من أخطارها الجسيمة.

وجميعُ المسلمين في أوروبا وأمريكا وأستراليا يُعانون من أخطار هذه المعضلات، وهذا واقع مرير.

لا نقولُ هذا لتحريمِ ما أحلَّ الله تعالى من زواج الكتابيات، ولكن نقوله لاجتناب أهواله، والتّوقي من أخطاره.

## شروط صحة «الزّواج من الكتابيات»:

ولصحة الزّواج من الكتابيات يجب توفُّرُ هذه الشّروط:

**الشّرط الأول**: أنْ تكون «الكتابيةُ» من «العفائف» وهي التي تعتقدُ حُرْمة «الزّنا» ولا ترضاه بحال.

**الشّرط الثاني**: أنْ تكون تابعةً لزوجها المسلم، من حيث الجنسية، لضمان انتساب الأولاد إلى الإسلام.

**الشّرط الثالث**: أنْ لا تكون حربيّةً - كالإسرائيلية - وأن لا تحمل العداءَ للإسلام ولا الكراهيةَ له.

**الشّرط الرابع**: أنْ ترضى بأحكام الإسلام في بناء الأسرة المسلمة، وأنْ تلتزم بالحجاب الشّرعي، والغُسْل من الجنابة والحيض والنّفاس، وأنْ تمتنع عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

**الشّرط الخامس**: أن لا تُلقِّنَ أولادَها شيئاً من عقيدتِها، ولا شيئاً من عاداتِ قومِها.

وإنْ كنّا نعتقدُ بصحّةِ هذه الشّروط لجوازِ «الزّواجِ من الكتابية» فإنّا نعتقد

بوجُوبِ التزام «الزّوج المسلم» بعقيدته وشريعته وأخلاق إسلامه، حيث يكون مؤمناً حقًّا، ومسلماً تقياً.

وهذا أهمُّ ما يجبُ اعتبارُهُ في صحّة الزّواج من الكتابية، أن يكون الزوجُ أسوةً حسنةً لزوجته، فما من مسلم إلّا ويجبُ عليه أن يلتزم بالإسلام التزاماً متكاملاً، وهذا ما يُحببُ الإسلامَ لغير المسلمين، وعلى الأخص «الزّوجة الكتابية» ومن وراء هذا يكون الرجاءُ كبيراً في إسلامها.

وهذه هي الغايةُ الكبرى من «زواج المسلم بالكتابية» لإدخال الإسلام إلى كلِّ بيتٍ من بيوت الكتابيين، ولو عن طريق المصاهرة والقرابة؛ وهذا ليكون الاحتكاك بالإسلام من أقرب الطّرق «طريق القرابة الأُسريّة»!.

وكونُ الإسلام ديناً «عالمياً» يجبُ على جميع النّاس أن يدخلوا في رحابه، وينالُوا شرفَ الانتسابِ إليه، ويجبُ على المسلمين أن يُبلِّغوا دعوتَهُ، وأنْ يكونوا دُعاةً إليه بعقيدتهم وأخلاقهم وآدابهم وسلُوكهم،وهذا ما فعله أصحاب رسول الله ﷺ، حينَ انطلقوا فاتحين، ففتَحُوا قلوبَ العباد، قبل فتح أبواب البلاد، فدخلَ الناسُ في دين الإسلام أفواجاً أفواجاً.